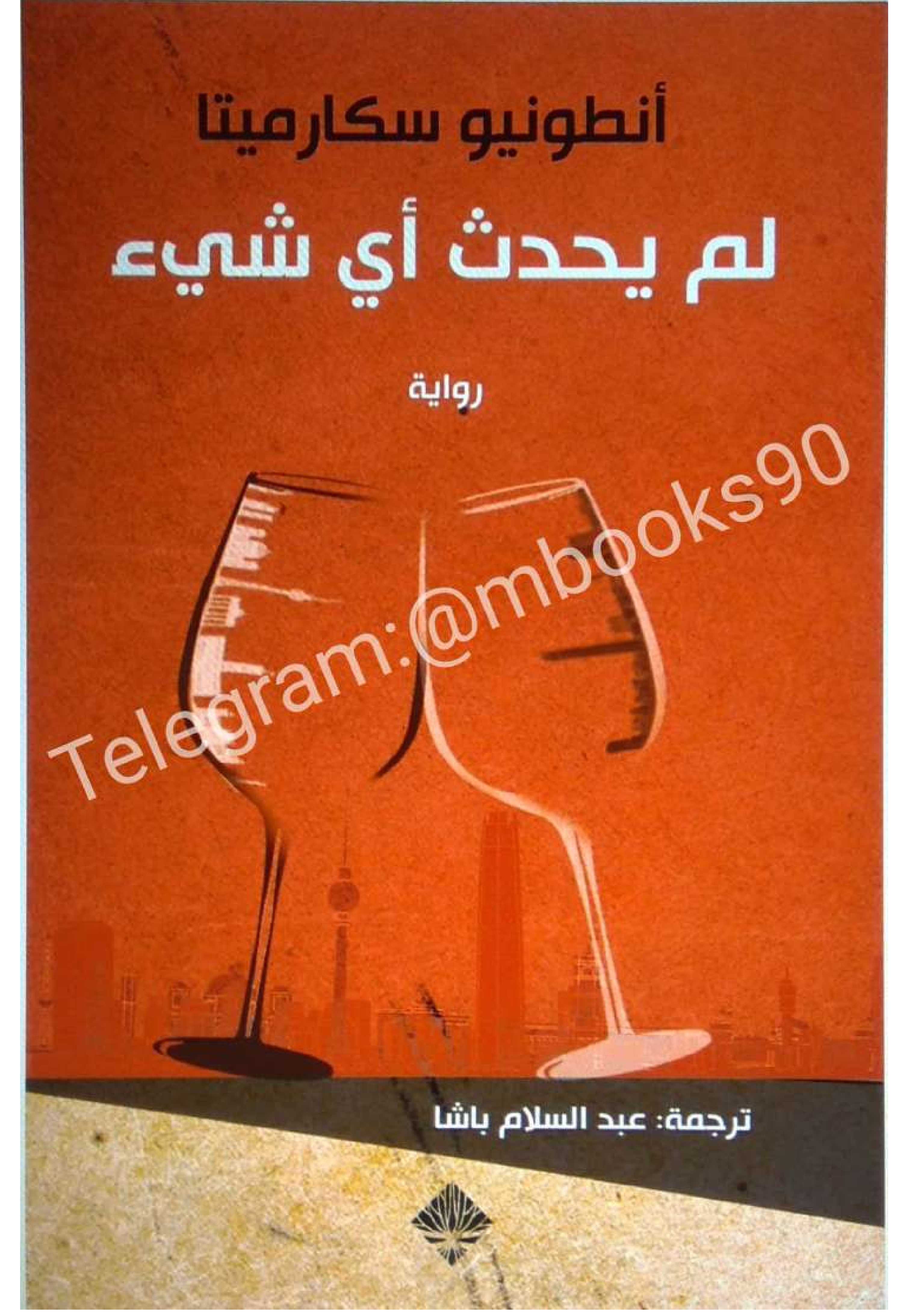

أنطونيو سكارميتا
لم يحدث أي شيء
رواية
Telegram:@mbooks90
ترجمة: عبد السلام باشا

أنطونيو سكارميتا



لمْ يحدثْ أيّ شيء

رواية





دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

مقدمة المؤلّف

عندما رُشِّحَ فيلمُ «ساعي البريد» لخمسِ جوائزَ أوسكار، قامت فِرَقٌ عديدةٌ من الصّحفيّين الأجانب المُدجَّجين بكاميراتٍ شَرِسةٍ بمحاصرة بيتي الصّيفيّ في قرية تونجوي التشيليّة، حيثُ كنتُ أمْضي صيفاً لطيفاً، بينما أنْسجُ روايتي الجديدة، وبصفتي مُؤلِّفَ رواية «ساعي بريد نيرودا»، التي اقتبِس منها الفيلمُ، أُخْضِعت لتحقيقٍ صارمٍ حَوْلَ صِدْقِ هذه الحكاية.

قبْلَ أيِّ شيءٍ، كانوا يريدون التّحقُّقَ ممّا إذا كان هناك شيءٌ ما في ساحلِ المُحيطِ قادرٌ على تحفيز نوعٍ من الإبْداع بَدا لهم مُحبّباً، ذلك المحيطُ الهادئُ «ذو السّبعة ألْسُن الخضراء، والسّبعة نمورٍ الخضراء». كانوا قد تأمَّلوا البحرَ مَلِيّاً، وبما أنَّ صياغة المَجازات كانت بطيئةً، قرَّروا تذوُّق مُنشّطاتنا الجِنْسيّةِ المَحلّيّةِ، وهي كالتّالي: لا فقاريّاتٌ بحريّةٌ فريدةٌ، مثل: قُنفُذِ البحرِ، والمَحار التشيليّ، والبرنقيل التشيليّ، ونبيذَ هذه البلاد الذي يَحْظى هُنا بمنزلةٍ كبيرةٍ تُكافئ منزلةَ النّبيذ الإسبانيّ.

بعد أنْ تحمَّسوا بسبب تناوُلِ هذه الأصْناف، التي قدَّمْتُها تكراراً بأريحيّةِ أهْلِ الجَنوب، وجَّهوا إليَّ سؤالاً لا يمكن لأيِّ

مُؤلِّفٍ أنْ يردَّ عليه، ليس تواضعاً، إنّما جَهْلاً. بعيونهم اللّامعة وكاميرات التَّصوير الفوتوغرافيّ والفيديو المُتدلّية المُتأرْجِحة، أرادوا أنْ أكْشفَ لهُم عن «سِحْر» القصّة التي أمْكَنها أنْ تُلْهِمَ بفيلمٍ مُرشَّحٍ الآنَ لجوائزَ عديدةٍ في بَلاط السِّينما.

قاطعْتُهم بحِدّةٍ.

قلتُ لهُم: أيُّها السّادة، أنا طائرٌ، ولستُ عالِماً مُتخصّصاً في دراسة الطُّيور. واستعنت بصورةٍ فسيولوجيّةٍ مُضيفاً: لا يمكنني رَكْلُ الضَرْبة الرُّكنيّة، وأكون في الوقتِ ذاته في منطقة الجَزاء؛ لأُصوِّبَ الكُرة برأسي، وأحْرِزَ الهَدف، ولاعبُنا الشَّهيرُ زامورانو، المعروف بلَقب «بام بام»، هذا المُهاجِمُ الذي سيفتقده المَدريديّون ذات يومٍ، لا يمكنه تحقيق هذه المُعجزة.

عندما رأيتُ حواجبَهم المُقطَّبةَ، قدَّمْتُ إليهم لِتْرات من كوكتيل «سيكو سور» *Pisco sour*، ذلك المنقوع التّشيليّ، الذي تَصلُ درجةُ الكُحول فيه إلى أربعين في المئة، والمُكوَّنُ من عرقٍ تشيليٍّ من عصير العِنَب، الذي يُخلط هُنا باللّيمونِ، والسُّكَّرِ، والثَّلجِ، وبَياضِ البَيْضِ، ويَصلُ تأثيرُه على شاربهِ إلى درجةِ نسيان اسْمِه، ولقبهِ، وعُمرِه، وفي حالة المُتزوّجين، عادةً

ما يجعلهم ينسون حالتهم الاجتماعيّة، لكنْ ما كُنّا نعتقد أنّه ترياقٌ ضدّ الفُضول، جاء بنتيجةٍ عكسيّةٍ؛ ضيوفي المحاورون الأعزّاء، الذين انطلقوا من عِقالهم بفضل هذا الشّراب الرّائع، باحوا بأسرارهم. لم أكُن الهدفَ الأساسيَّ لمقالاتهم، إنّما كانت لديهم، بتكليفٍ من رؤساء التّحرير، فريسةٌ أكبر: العثور على ساعي البريد، الشّخصيّة المِحوريّة في روايتي؛ لكي يكتبوا موضوعاتٍ عنه، عن حياته، وعن زوجه بياتريث جونثالث، وعن ابنه بابلو نيفتالي خيمينث، وبما أنّنا قدْ وصلنا إلى هنا، فلْنتناول أيضاً حَماتَهُ القاسيةَ المُحبّةَ للاسْتشهاد بالأمثال. كمؤلّفٍ للعمل، لمْ يكنْ هناك شكٌّ في أنّني أعرف أماكنهم، وطلبوا إليّ أنْ أتذرّع باللّطف، والكَرَم، وبروحٍ أخويةٍ لا نهائيّةٍ، وأنْ أمدّهم بهذه المعلومات الحَصريّة.

شربتُ كأسَ «سيكو سور» بالبَهجةِ ذاتها التي لابُدّ من أنّ سُقْراطَ قدْ شَعرَ بها بينما يتجرّعُ عصير الشّوكران. كانوا قد أمسكوا بي مُتلبّساً. كان يجب عليَّ في تلك اللّحظة أنْ أعترفَ للمصوّرِين، والصّحفيّين، وفنّيي الإضاءة والماكياجِ، أنْ لا وجودَ لـ«ساعي البريد»، وأنّه كان مُجرّد شخصيّةٍ اقتلعتها من روحي، وتركتُها في الحياة لتسير عبْرَ طُرقات خَياليَ، لكنْ بالإضافة إلى

الرُّعْبِ، يجب أنْ أعْترف نَجلاً أنَّ الزّهْوَ قد ملأ صدري؛ كنتُ قد اخترعتُ كائناً مُتخيَّلاً، وحسْبَ مَبْعوثي العالَم الحقيقيّ يجب أن يكون موجوداً.

حينئذٍ تذكّرتُ أنَّها لمْ تكنْ أوّل مرّةٍ أمرّ فيها بضائقةٍ شبيهةٍ. في السَّنوات ذاتها التي كتبتُ فيها «ساعي بريد نيرودا» كانت رواية «لم يحدُثْ أيّ شيءٍ» قد اختمرتْ في عقلي، كانت كِلتا الرِّوايتين في مَجرَّتين مُتشابهتينِ من المشاعر، على أنَّ ما يفصلُ بينهما هو ما كان نيرودا يُطْلقُ عليه «النِّطاق الجغرافيّ المُتبايِن»، من دون أنْ يُحدِّد الرّاوي هذا، كان «ساعي البريد» كما تلقّاه القُرّاء يتلاشى وسْط رُعْب الدّيكتاتوريّة التشيليّة، بينما كانت الشّخصيّة الرّئيسة في «لمْ يحدُثْ أيّ شيءٍ» قد فرَّتْ، مُنْجرَّةً خلْف الأبوين، إلى أوروبّا التي كانت تُقدِّم للّاجئين رئاتٍ من الحُرّيّة، لكنَّها كانت تصيبهم أيضاً بوجَعِ البُعاد. سمعت أحدهم يقول، في لحظةٍ سخيفةٍ بين اللّيل والفَجر: إنَّه يُفضِّل موتاً أكيداً في الوطن البعيد أكثر من هذا الاحْتضار الحزين وسْط لُغاتٍ غير مفهومةٍ، بعد اقْتلاعهم من مَجالهم الطَّبيعيّ، وتجريدهم من عوالمهم الطّوباويّة، وبعدما انْهزموا تماماً، أخذَ المُهاجرون اللّاتينيّون في الانتظام في غيتوهات حزنٍ، التي منعتهم في

أحيانٍ كثيرةٍ من إدْراك المُتَع اليوميّة التي توفّرها لهُم البلدان التي قدَّمت لهم ملاذاً.

مهما بَدا هذا صادماً، من وجهة النَّظر الشُّعوريّة للاجئ، ينْقسم العالم إلى الوطن الذي فقده وسائر الكوكب، وهكذا كان أبناء وطني ينتقلون من مدينةٍ إلى أُخرى في طقسٍ بطيءٍ من تبادُل الأنْباء السَّيّئة حول البلاد البعيدة، ويُنظّمون فعاليّاتٍ سياسيّةً متواضعةً لا صدى لها تقريباً في تشيلي، يواسي بعضهم بعضاً بتبادُل دعوات العشاء لتناوُل أطْباقٍ تقليديّةٍ تشيليةٍ يطهونها ببَهجة، ويفتقدون الرَّغبة في عقْد علاقاتٍ مع كُلّ من لا يجعل من ألمهم وفعاليّاتهم السّياسيّة همَّه الأوَّل.

لكنْ إنْ كانت حيواتهم مُؤجَّلةً حتّى يعودوا إلى الوطن حُرّاً، فإنَّ احتياجات أبنائهم كانت مختلفةً: كانوا يتعلَّمون لغة البَلد المُضيف في المدرسة، كانت الشَّوارع تأسرهم، أرواحهم الشّابّة كانت تلتقي بأشْخاصٍ في أعمارهم ذاتها، وبحماسٍ جديرٍ بالمُراهقين كانوا يتشاركون الإعْجاب بنجوم السِّينما، والغناء، والتّلفاز، وصالات الرَّقص، والبارات، والمقاهي الجامعيّة، وخفقات القلب الأولى، والتَّنفيس عن رغباتهم الإيروتيكيّة، والكتب، والنّكات. إنْ كان الآباءُ قد دخلوا في مرحلةٍ من

العُزلة، والتّأمُّل، والحزن، فقد كان الأبناء يجدون أمامهم الانْطلاق ومغامرة الهجرة نَحْو الآخر، وإمكانيّة أنْ يكونوا مُختلفين في وسطٍ مُتناغمٍ، مع كلّ ما يَعنيه هذا من مَخاطرَ وإثارةٍ. تلخيصاً: الكلامُ المُتجدّدُ كلّه عن الموضوعات الشّبابيّة الذي كانوا يتغلّبون به في الشّوارع على الكآبة والزّجْر في البيوت.

تقوقع الآباءُ في هوَسِهم؛ إذْ كانوا يؤمنون بنُبْل الحياة، بينما ينشغلون بالوطن المَقموع، أو بتقديم الدّعم لمن كانوا يحاولون المقاومة في تشيلي، أدَّى هذا إلى أنْ تعيش الأسر في صراعاتٍ. تحطَّمتْ عائلاتٌ كثيرةٌ، بعدما لَمْ تعُدْ قادرةً على الحياة بين قوسين، في أرض الضَّياع بين البلد الحقيقيّ الذي لا يقبلونه، والبلد الشَّبحيّ الذي لَمْ يكنْ يقبلهم. تواتَر الانْفصالُ والطّلاقُ. الشَّخصُ التشيليُّ، واسعُ المشاركة في حياة مُجتمعه، كان يفتقد إلى الآفاق التي تتيح له التّطوّر بجوار «رفيقته»؛ مُجرّد خطاب الحنين، أو التّطلّع إلى يومٍ طوباويٍّ احتجاجيّ لَمْ يكونا كافيين لإضفاء التّماسك «الحقيقي» على زيجته وعائلته.

أنا من فئة الكُتّاب الذين يصوغون حكاياتهم، في المقام الأوّل، بمشاعرِ خبرتهم الشَّخصيّة، ولقد قيَّض لي التّاريخ فرصة أنْ

أكون شاهداً على أحداث كُبرى رفعت الحيوات اليوميّة لأفرادٍ إلى مقاماتٍ عاليةٍ، أو حطّمتها. أحد هذه الأحداث هو ما وقع لأبطال «ساعي بريد نيرودا»، الذين كانوا ينْهون حفلةً مبتهجةً من التّطوّر، والحُبّ، والصّداقة مع شخصيّةٍ مأساويّةٍ؛ كانت الدّيمقراطيّة في تشيلي تموت على يد انقلابٍ قاسٍ، وبعد أسبوعين مات بابلو نيرودا. بتوافقٍ زمنيّ مؤلمٍ، كان كلٌّ من الحُرّيّة والشّعر ينْطفئان، هذه استعارةٌ لَمْ أخترعها، لكن التّاريخ قدّمها إليّ، وقرّرتُ الإمْساك بتلابيبها. تلك الرّواية تنتهي بصُحفيّ يعْرِض السُّكّر على الرّاوي لكي يضعه في قهوته، لكن الأخيرٌ غطّى فنجانه بينما يقول: «لا، شكراً، أشربها مُرّةً».

كان هذا هو المَذاقُ الذي ظلّ في فمي خلال وقتٍ طويلٍ، تحديداً حتّى يومٍ ما في برلين، عندما عرفتُ أوّل الشّخوص التي أوْحَتْ لي بـ«لمْ يحدثْ أيُّ شيءٍ»، قدّمه إليّ ابْني المُراهق، بينما كان يضرب أوتار «باص غيتار» دون رحمةٍ بين الحيطان الرّقيقة لمَسْكَني القديم في برلين. قال ابني هذه الكلمات: «هذا يُحبُّ الأدبَ أكثر من الموسيقا». تحت رَعْد النّغمات الجشّاوات «زوم-زوم» للآلة الموسيقيّة، سألته عن قراءاته المُفضّلة، وأجابني:

- أحبُّ الكتابة أكثر من حُبّي للقراءة.

- حسنٌ. وكيف يستقيمُ أحدُ الأمرين من دون الآخر؟

- في الحقيقة، أخشى التأثُّر بأسلوبٍ آخر إنْ قرأتُ.

- وكيف هو أسلوبك؟

- كيفما اتَّفق.

هذا التَّعبيرُ التشيليُّ الأصيلُ يعني «من دون تدبيرٍ، أو تفكيرٍ».

من المعروف أنَّ المراهقين يقيسون قِيَمَ العالمِ بِعصا العفويَّة، واعتزازهم بالذّات لا يقلُّ عن عدد بثور حَبِّ الشَّباب. قمتُ بعد ذلك بتنظيم وُرَشٍ أدبيّة للشّباب، والتقيتُ أحياناً بزعماءَ مُندفعين إلى درجة الهمجيّة، مقتنعين بأنَّ الثّقافة ضارّةٌ بالأصالة والتّفرُّد، وفي بعض الأحيان نجحتُ في مُساجلاتي معهم، وجعلتهم يَرون أنَّ العفويّة من دون تعقيدٍ كانت مُرشّحةً أكيدةً لأنْ تصبح شيئاً عاديّاً، كما أنَّ التّلقائيّة من دون سُخريةٍ كانت كتناوُل كأسِ «دراي مانهاتن» من دون حبّة الزَّيتون.

عرفتُ أنَّ هذا الفتى جاء إلى البيت لكي ينظّم مع ابني أمسيةً لموسيقا الرُّوك لصالح المقاومة التشيليّة، وهذا يعني أنَّ التَّنظيم كان مهمّتنا نحن الآباء، الذين كنّا نسهر اللّيل أمام ماكينات الطِّباعة اليدويّة بينما ننْسخُ منشوراتٍ تُنبئ بالنِّهاية الوشيكة للدّيكتاتوريّة، وكانت الموسيقا هي مُساهمة الشَّباب، وبالمناسبة كانوا يعزفون مقطوعاتِ فريقَيْ: «لد زبلين» و«إلكتريك لايت أوركسترا» الإنجليزيّين أفضل من عزْفهم لأعمال فريقَيْ: «كيلابايون» وفريق «إنتي- إيلاماني(1)» التشيليّيْن. كان الفتى قد أتى بـ«قصيدة» كمساهمة في «يوم النِّضال والرُّوك»، على أمل أنْ يقوم ابْنيَ وفرقته الهاوية بوَضْع الموسيقا لها وغنائها. كانت الورقة التي تحمل النَّصّ ترتعش في يَده؛ لأنَّ ابْني، الذي كان يعشق العُنْفَ اللّفظيَّ لجيم موريسون، رفضها قبْل قليلٍ بتعبيرٍ قاسٍ: «إنّها تحذلقٌ خفيف soft».

عندما رأيتهُ على هذه الحال من الخذلان دعوته إلى مكتبي، قدَّمتُ له قهوةً ألمانيّةً، وهو منقوعٌ بلا قُدرةٍ على التّنبيه، وطلبتُ إليه أنْ يُطْلعني على النَّصّ المرفوض، وبِضْعة نصوصٍ أُخرى كان يَحْميها في حافظةٍ تحمل بوستراً مُلصقاً لوَجْه إلفيس كوستيلو

داخل عدستين سميكتين للغاية. يمكنني ذِكْرُ «الحذّلقة الخفيفة»؛ لأنّني احتفظتُ بها مع المواد التي نسجتُ منها روايتي « لم يحدثْ أيّ شيء». كانت تقول:

«ألْقِ شَعرك إلى الخلْفِ بيَدِك

ألْقِ شَعرك إلى الخلْفِ بيَدِك ببُطْءٍ

ألْقِ شَعرك إلى الخلْفِ بيَدِك ببُطْءٍ مرّةً أُخرى

ألْقِ شَعرك إلى الخلْف بيَدِك ببُطْءٍ مرّةً أُخرى وأُخرى

ألْقِ شَعرك إلى الخلْف بيَدِك ببُطْءٍ مرّةً أُخرى وأُخرى بلا توقُّفٍ»

وضعتُ له ملعقة سُكّرٍ أُخرى في القهوة؛ لكي يتحسّن مَذاقها، واسْتلقيتُ إلى الخلْف على الأريكة بيدين منعقدتين خلْفَ ظهري.

- إنّها تكراريّةٌ للغاية، ألا ترى هذا؟

- لا يا رجُل، أكثر من كونها تكراريّةً، إنَّها إيقاعيّةٌ وهوسيّةٌ.

مالَ بعُنقهِ، وظلَّ ينظرُ إليَّ مثل الطُّيور المذهولة في الغابات اللّيليّة.

- «إيقاعيّةٌ وهَوَسيّةٌ». كرّرَ.

فركَ يَديه كأنّه تلقّى هديّةً لا تُقدَّر في الحال. بَدا أنَّ اكتئابه المُحْتَمل قدْ تبخَّر.

- «تكراريّةٌ، وإيقاعيّةٌ، وهَوَسيّةٌ». قلتُ مُقفّياً.

- «تكراريّةٌ، وإيقاعيّةٌ، وهَوَسيّةٌ، وحاسمةٌ». قال بينما يدقُّ على رُكبتيه.

نهضَ بذلك الانْدفاع الشَّبابيّ، حيث يبدو أنَّ العِظامَ جمهوريّاتٌ «مُستقلّةٌ» عن المَفاصل.

- هل تعتقدُ يا عمّ أنَّ ما قرأتَ يُعدُّ شِعراً؟

يجب أنْ أنبّه إلى أنَّ استعمال لَفظة «عمّ» لمُخاطبة والد أحدِ

الأصدقاء كانت موضةً ذائعةً للغاية في ذلك الوقت. أتوقّف عند هذا المُصطلح؛ لأنّني كنت ضحيّته في مرّاتٍ كثيرةٍ عندما اقتربتُ بنيّات مُلتبسةٍ من بَنات بعض أبْناء بلدي، وعندما أطْلقوه عليّ ألْقوا بي في أسْمى منزلةٍ للسُّخرية، وفي أكثر درجات التّثبيط تحفيزاً.

- هل يمكن ألّا تُخاطبني بـ «عمّ»؟

- لماذا؟

- «لأنّه تَحذلقٌ». قلت له مُنتقماً.

- والنّصُّ أيضاً، أليس كذلك؟

- النّصُّ جيدٌ. ما الذي ألْهمك لِتكتبه؟

- كنتُ جالساً في مقهى، وكانت هناك فتاةٌ تقرأ كتاباً في المائدة المواجهة. من حينٍ إلى آخَر، كانت تُلقي شَعرها إلى الخلْف من دون التّوقّف عن القراءة، وهذا أثار مشاعري.

- أثار مشاعرك!

- شعرتُ بأنّني أعْشقها.

أتذكّرُ أنّه كان مساءً ربيعيّاً في برلين، كانت الشَّمسُ سخيّة السُّطوع، والنَّسيمُ الذي يدخل عبْر النّافذة لطيفاً. لمْ يخْطُرْ في بالي كتابة قصيدة بناءً على خبرة شبيهة بتلك، أو بأسلوب ذلك الفتى التشيليّ، لكنّني كنت أفْهم مشاعره تماماً، فقد انقطعت أنفاسي مئات المرّات في حضور نساءٍ بأعينهنّ، بالإضافة إلى مُتعة رؤيتهنّ متألّقات، ومُثيرات، ونائيات، كان شعورٌ بالجَمال يُسيطر عليَّ، ولا إراديّاً كان يحملني إلى «تأثُّر شعوريّ» يسبّب لي ألماً. على نحوٍ ما بَدا لي أمراً مُثيراً للارتياح أنْ يشعر فتىً مُراهق بعاطفة شبيهة بعاطفتي. في الحقيقة، كنت قد بدأت أعتقد أنّها من آثار تقدُّم العُمر.

كانت هذه هي اللّحظة المُحدّدة التي تواصلت فيها روحي بحكاية «لمْ يحدث أيُّ شيء». كان ناشري قد اقترح عليّ كتابة حكاية حَوْل المنْفى، وهو موضوعٌ يلْمس الكثير من الشّعوب بسبب مُهاجريهم، وكان يوهن أيضاً الكثير من البلدان التي كان عليها أنْ تستقبلهم من دون أنْ تعرف عقليّاتهم، أو ثقافتهم، أو

عاداتهم، أو تطلّعاتهم. كان هناك أمْران يُبعدانني حتّى ذلك الحين عن القيام بهذا العمل: أحدُهما أنّني كنت قد فكّرتُ وخطّطتُ لكتابة «ساعي بريد نيرودا»، الحكاية التي لمْ يتبقّ لها سوى بِضْعة جرامات قليلة لكي تصبح كتابتها غير قابلةٍ للتأجيل، والأمرُ الآخَرُ هو الانْطباعُ بالغُ الحزْن والكآبة الذي كان نفْي أبناء بلدي ونفيي أنا ذاتي يسبّبه لي. لمْ أكنْ راغباً في تلك اللّحظة في كتابة أيّ شيءٍ يعرّضني لهزيمةٍ مزدوجة؛ البُعْد عن بلدي، وغرق كتابتي في اليأس، لكنّ زيارة ذلك الفتى بنصّه «التّكراريّ الإيقاعيّ الهَوسيّ الحاسم» ألْهمَني بشيءٍ مُلحّ.

كان يجبُ أنْ أحْكي خبرة المنْفى، لكنْ ليس من وجهة نظر الضَّحايا المباشرة؛ أيْ: الآباء الواعين المُؤدلجين، إنّما من وجهة الأبناء، الذين كانوا مُحاطين بقِيَم البَلد الأمّ في أثناء وجودهم وسْط العائلة، وفي البيت، لكنّهم كانوا مُضطّرين لاتِّباع قانون البقاء في زَخم الشّوارع الغريبة. لمْ يكن الحنين، أو الذّكرى، أو الفَجر بعيد الاحتمال، الذي تُعدّ به أغاني الاحْتجاج بعد سقوط الدّيكتاتور يفيدهم كجواز سَفر في تلك المتاهات الممتلئة بالأشواق.

منذ ذلك اليوم، كلّما زُرتُ أصدقائي كنت أنْبش قليلاً

في حيوات أبنائهم، وكنت أفتّش في أسطواناتهم، وكتبهم، ومجلّاتهم، وكنت أنْبهر بالمُلصقات الرّياضيّة والسّينمائيّة على الجُدران، وكنت أسْمح لزميلاتهم في المدرسة الثّانويّة أنْ يصحّحوا لي نُطقي الرّديء بالألمانيّة، ولمْ أكنْ أُضيّع فرصة اسْتفزازهم؛ لكي يحكوا لي عن صراعاتهم مع العجائز؛ أي: آبائهم، وعن مشكلاتهم في الشّارع، وفي المدرسة، وألوان الشَّعر والجِلْد، وخصوصاً كيف كانوا يُصفّون حساباتهم مع بلدهم الأَمّ، الذي كان يبتعد كلّ يومٍ باطّرادٍ، ويتركَّز في أربعة، أو خمسة رموز فقط: القصر الرّئاسيّ الذي تلتهمه النّيران بعدما قصفه الانقلابيّون، وصورة لألليندي، وأسطوانات كيلابايون، والعَلَم ثلاثيّ الألوان ذو النَّجمة الوحيدة، والزَّميل الذي وصل من «الدّاخل»، الذي يجب أنْ يقدّموا له فراشاً خلال بضْعة أيّامٍ.

بعد بضْعة أسابيع كان حُكْمي قد صَدر. أبناؤنا يسبَحون بسلاسةٍ في اتّجاهين: كانوا يقْبلون تحدّيات الوسَط الجديد، وفي الوقت ذاته لمْ ينْفصلوا عن عالَم آبائهم.

بالنّسبة للموضوع الأوّل، كانوا مدفوعين بالرَّغبة، وحَماس السّنّ، وإيقاع الموسيقا، وانْبساطات وانقباضات قلوبهم، التي

لم تكن تعرف حدوداً، لكنّهم كانوا يعرفون كيف يتصرّفون برقّة أمام آبائهم. أحياناً، بمهارتهم في اللّغة، كانوا يقومون بدور مُترجميهم في السّجالات والخِطابات. كانوا يقولون «سننتصر»، على الرغم من شُكوك قلوبهم. كانوا يأكلون المخبوزات وشطائر الذّرة، ويقبلون أنّ سلسلة جبال بلادنا هي الأعلى، وأنّ نبيذنا هو الأكثر قوّةً، وأنَّ أفكارنا السّياسيّة هي الأعْدل، وأن شهداءنا هُم الأكثر خلوداً.

لكنْ في لحظة ما في الحياة، علَّموني شيئاً أطلقت عليه ذات يوم «سخريةً ديمقراطيةً»، أي إنّهم كانوا على استعداد للسخرية من عناد النّاس كلّهم، لكنْ كانوا يَسخرون من أَنفسهم في المقام الأوّل. عرفتُ أصدقاء كثيرين للشّاعر «التّكراريّ»، حاورتهم بينما أَحْمل جهاز تسجيلٍ في يدي، تحدّثتُ إلى رفيقاتهم، ذهبتُ إلى مباريات كرة القدم التي يلعبونها على ملاعب تيرجارتن، نسيتُ دوري كمراقبٍ، ودخلتُ أرضَ الملعب ذات مرّةٍ مُطالباً بضربة جَزاءٍ لصالح ابني الذي كان متمدّداً ومحطّماً في منطقة السِّت ياردات بسبب دبّابة «بانثر» ذات عينين خضراوين، وكتفين جديرين بلاعب رجبيّ. رأيتهم يبكون في أحضان أُمّهاتهم أحياناً، وفي أحيانٍ أُخرى كنت

حاضراً عندما كانوا يواسونهنّ بعناقاتٍ، وأغانٍ، ووعودٍ، أو كذباتٍ بيضاء.

وفي يومٍ خريفيّ تركتُ جانباً ملحوظاتي كلّها، وشرائط التّسجيل، وصمتي، وتركتُ الشّخصيّة التي تُدعى «لمْ يحدثْ أيّ شيءٍ» تحكي حكايتها بالتّفصيل.

أنطونيو سكارميتا

وقع انقلابٌ عسكريٌّ في تشيلي يوم الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. اغتالوا الرّئيس ألليندي، وماتَ أفرادٌ كثيرون، وقصفت الطّائراتُ القصرَ الرّئاسيّ بالقنابل، وكانت لدينا في البيت صورةٌ كبيرةٌ بالألوان حيث كانت ألْسنة اللّهب تلتهم القصْر.

كان عيد ميلادي يوم الثّالث عشر من أيلول/سبتمبر، أهْداني أبي غيتاراً، في ذلك الحين كنت أريد أنْ أصْبح مُغنّياً. كنتُ أحبُّ البرامجِ الموسيقيّة في التّلفاز، وكنت قد تركتُ شَعري ليصير طويلاً، وكنت أغنّي مع أصدقاء الحيّ على النّاصية، كنّا نريد تكوين فرقةٍ للعزْف في حفلات المدارس الثّانويّة.

لكنْ لمْ أتمكّن من عزْف الغيتار مُطلقاً، لأنّنا انْتقلنا، يوم عيد ميلادي، إلى بيت عمّتي التي كانت مريضةً، وعرفنا أنَّ البحث جارٍ عن أبي، لكي يأخذوه إلى السِّجن، بعد ذلك كتب أبي لعمّتي ألّا تبيع سوى الغيتار، لأنَّ عمّتي طُردت من عملها في المستشفى. هناك في تشيلي، فصلوا الكثيرين من وظائفهم، وأصبح كلّ شيءٍ باهظَ الثّمن الآن.

لمْ أعدْ مُهتمّاً بأنْ تكون قد باعت الغيتار، وأنّني لمْ أستطع العزْف عليه مُطلقاً، لأنّني لمْ أعدْ أريد أن أكون مُغنّياً.

الآن أريد أن أكون كاتباً. يقول المُعلّم في المدرسة إنّني موهوبٌ، على الرغم من أنّني لا أستطيع كتابة الألمانيّة جيّداً. أعتقد بالطّبع أنّ هناك حلّاً لهذا، فعندما وصلت مع أبي، وأمّي، وأخي الصَّغير لمْ يكنْ أيٌّ منّا يتحدّث الألمانيّة.

لا أظنُّ أنّني غوته الآن، لكنْ يمكنني التَّعبير عن نفسي، بالإضافة إلى هذا، لديّ صديقةٌ ألمانيّةٌ. منذ ثلاثة شهورٍ ألتقي بإيديث كلّ يومٍ. ندرس في المدرسة ذاتها، وأزورها كلّ يومٍ، وأكثر ما يعجبني هو وقت بقائنا بمفردنا في البيت، حيث

نخضّب حُمرةً لكثرة عناقنا وقُبُلاتنا.

أذهب لرؤية فريق هيرتا في أوليمبيا شتاديون في أيّام السَّبت، لستُ راضٍ عن أداء الفريق هذا الموسم. لاعبي المفضَّل كان كوستيديس، مع الأسف، باعه هيرتا. أعتقد أنّه يلعب بكثير من المَكْر، وعندما أراه بينما يراوغ أتذكّر كثيراً لاعباً تشيلياً يُسمّى كاسيزلي، وكان يلعب في صفوف «كولو-كولو»، وكان في حزب الاتّحاد الشَّعبيّ، وأصبح الآن لاعباً ناجحاً في إسبانيا، وبالإضافة لهذا كنت أُحبُّ طريقة لَعِب كليمان في الدّفاع، الذي كان يشبه أيضاً لاعباً تشيليّاً آخر، إلياس فيجروا، المُلقّب بـ«المنيع».

أبتهجُ كثيراً عندما يفوز فريق هيرتا، وأحزنُ عندما يخسر، لكنّني لست من المتعصّبين الذين يذهبون إلى *الاستاد* بعَلَمٍ وصافرات، ويرتدون قميص هيرتا. عائلتي كلّها تشجّع هيرتا. أبي مُقتنعٌ أنَّ حكومةً مثل المجلس العسكريّ التشيليّ يجب أن تسقط سريعاً، لأنّه لا يوجد من يريدها في العالم، والنّاسُ هناك تُعاني كثيراً.

قبل ذلك لمْ يكنْ أيُّ شخصٍ في فصلي بالمدرسة يعرف

أين تقع تشيلي، بعد ذلك أرَيتهم إيّاها على الخريطة، ضحك الكثيرون، لأنّهم لم يكونوا يصدّقون أنّ هناك بلداً «رفيعاً» للغاية إلى هذا الحدّ، وفي الحقيقة تبدو تشيلي في الخريطة كشريطٍ من *السباغيتي* المسطّح. كانوا يسألونني عن عدد النّاس الذين يمكن أن يسعهم هذا البلد، عندما قلت لهم: إنّه يَسع عشرة ملايين، اعتقدوا أنّني أسْخَر منهم.

قلت لهم إنَّ *اسْتاد* تشيلي الوطنيّ أكبرُ من أوليمبيا شتاديون الموجود هنا، وهناك أُقيم مونديال 1962، الذي فازت به البرازيل، وحصلت تشيكوسلوفاكيا على المركز الثّاني، وجاءت تشيلي في المركز الثّالث. لا يعرفون أنَّ العَسكر قد حبسوا الكثيرين في ذلك الاسْتاد بعد ذلك، وهناك قتلوا عمّي رفائيل الذي كان معلّماً، وكان أقرب أصدقاء أبي.

أنا لا أحكي هذه الأشياء مُطلقاً، لأنّني لا أحبُّ أنْ يحزن النّاس. الآنَ لمْ تعُد البرازيل هي أفضل فريقٍ في العالم، إنّما الأرجنتين. كنتُ أُرسلُ لأصدقائي هناك بطاقاتٍ بريديّةً بصور ماير وبيكنباور.

لمْ نتأقلمْ في البداية مُطلقاً. كان أبي وأمّي بلا عملٍ، سقط أخي

الصَّغير مريضاً بالحمّى، بسبب تغيير الطّقس، وكُنّا أربعتنا نعيش في غرفة واحدة، في شقّة صديق ألمانيّ عاش في تشيلي من قبل. كانت أمّي أكثرنا معاناةً، لأنّنا لم نكن نمتلك بيتاً صغيراً بفناءٍ وغرفٍ كثيرةٍ في بلديّة «نونيوا»، حيث يمتلك كلُّ شخصٍ مكاناً ليفعل ما يريد.

أكثر ما يضايقني أنَّ أخي الأصغر لا يفهم الألمانيّة جيّداً، وكلّما شاهدنا التلفاز يسألني باستمرارٍ عمّا يحدث، وآخُذ في التّرجمة له، وحينئذ لا أسمع الممثّلين، ويُلحُّ أخي في أنْ أواصل الشَّرح له، حتّى أضطرّ إلى ضَربه، ويأخذ في البكاء، وتضربني أمّي، ويتعكَّر مزاجها، وتتشاجر مع أبي، الذي يكون مُرهقاً؛ لأنّه جاء بعد البحث عن عملٍ، وتقول أمّي: إنّها لا تستطيع أن تستمرّ على هذه الحال، وإنّها ستعود إلى تشيلي، وإنّها لا تريد الحياة هنا، وإنَّ أبي سينام من دون تناول طعامٍ.

في الشّتاء تغربُ الشّمسُ في وقتٍ مُبكّرٍ للغاية. عندما أخرج من المدرسة مع إيديث في شهر كانون الأول/ديسمبر لا يكون هناك ضوءٌ طبيعيّ تقريباً، وهذا مُوات لنا تماماً. نعرف أين توجد بضْعة أماكنَ مُعتمةٍ إلى حدّ ما؛ لكي نظلَّ هناك بعض الوقت. اللّيلُ قصيرٌ في تشيلي. الطُّيورُ أكثرُ من الموجودة في برلين.

سلسلةُ جبالٍ رائعة حيث يوجد جليدٌ على قممها دائماً. توجد حشراتٌ كثيرةٌ، وحيواناتٌ طليقةٌ، وذبابٌ. هنا في ألمانيا يوجد ذبابٌ قليلٌ للغاية. النّاسُ هنا بالغو الاعْتناء بالنّظافة.

كنتُ أوّل أفراد عائلتي في تعلُّم الألمانيّة، وكلّما رنَّ جَرَسُ الهاتف، ناداني أبي لكي أُرُدَّ. عندما لا أكون في البيت أحياناً، يترك أبي وأمّي الهاتفَ يرنّ، لأنّهما كانا يخجلان من رفْع السَّمّاعة، وعندما أعود إلى البيت ينْهراني، لأنّني لمْ أكن موجوداً عندما رنَّ الهاتف.

الآنَ نتركهُ يرنّ كما يشاء، لكنْ في الشُّهور الأولى كان طعامنا يعتمد على الهاتف، لأنَّ أبي وأمّي حصلا على عملٍ لتعليم الإسبانيّة، دروس خاصّة، وبما أنّهما مُعلّمان، لمْ يكن التّدريس يشقُّ عليهما قطُّ. كنت أُدوِن عناوين الطُّلّاب في الدّفتر، وأكتب اليوم الذي يحُدّدونه لتلقّي الدُّروس.

في البداية لمْ يكنْ لديّ أصدقاء في المدرسة. كنت أجلس مع أخي الصَّغير في الفُسحة، ونُمضي الوقت في أكلِ الشطائر، وأخْذ حمّام شمسٍ مُستندَيْن إلى الجدار، وهذه خصيصةٌ أُخرى في شخصي: أنا أفضلُ من يأخذُ حمّامات شمسٍ في العالم، ربّما

لأنّني أشعر بالصّقيع، وأموت من البَرد. كانوا يُطلقون عليّ «العظاء» في تشيلي. أنا والشّمس صديقان حَميمان.

هُنا في المدرسة لا يُعطوننا أيَّ شيءٍ من الحليب في الفُسْحة؛ لأنَّ الأطفال يتغذّون جيّداً في البيت. هناك في تشيلي، كان الكثير من الأطفال يموتون من الجوع، وعندما جاء أللِيندي أمرَ أنْ يحصل كلُّ أطفال تشيلي على نصف لترٍ من الحليب كلّ يومٍ، وكان هذا أمراً طيّباً للغاية؛ لأنّهم لمْ يعودوا يموتون. الأولادُ هُنا لا يعرفون ماذا يعني بلدٌ فقيرٌ، «فقيرٌ بالِفعل». لمْ يروا من قبْل بيتاً مصنوعاً من الكرتون والصَّفيح. لا يصدّقونني عندما أقول إنّها كانت تنهار عندما تهبُّ الرِّياح، أو يسقطُ مطرٌ غزيرٌ. بالإضافة إلى هذا، في تشيلي توجدُ زلازلُ كثيرةٌ. إنّهم لا يعرفون الزّلازل هنا. ذات يومٍ ذهبتُ مع هينينغ، وكارل، وبيتر إلى كودام لنرى فيلم «الزّلزال»، وعندما أخذت القاعةُ بالاهتزاز انفجر الثّلاثة بالضَّحك، لكنّني شعرتُ بحُزنٍ شديدٍ؛ لأنّني تذكّرتُ تشيلي. عندما حكيتُ لأبي أنّني حزنتُ بسبب هذا، طرق رأسي بعُقَد أصابعه، وقال لي: إنّني أبْله لدرجة افْتقاد الزّلازل، وإنَّ الشّيء الوحيد الجيّد في الوجود، بعيداً عن تشيلي، هو عدم المعاناة منها، وآتي أنا الآن بهذه الحماقة.

أبي وأمّي يعتقدان أنّني أحمق؛ لأنّني عاشق. ربّما كانا مُحقَّيْن؛ لأنّني أمضي السّاعات ممدّداً بجوار الجدار، آخذُ حمّامات شمسٍ، وأفكّر في إيديث. أفكّر في أشياء أودُّ أنْ أقولها لها عندما أراها في المرّة التّالية، وأنْ أنْطقها بألمانيّةٍ جيّدة. أرى طريقة نُطقها مليّاً في المُعجم. يجب أنْ أقول لإيديث أشياء لطيفةً بالألمانيّة؛ لأنّها جميلةٌ للغاية، وإنْ ظللتُ صامتاً، فمن المؤكَّد أنَّ شخصاً آخَر سيسلبني إيّاها.

الفتْيان الكبار هُنا يستمتعون بسَلْب معشوقاتنا نحن الأصْغر عُمْراً؛ يذهبون إلى الحفلات معهنّ، ويتحدّثون إليهنّ عن أمورٍ مهمّة، والبلْهاوات يشْعُرْنَ كممثّلات السّينما في صُحبتهم. أُركّزُ كثيراً فيما يفعل الفِتْيانُ الكبار في الجيمنازيوم عندما يتحدّثون إلى الفتيات.

على سبيل المثال: انتبهتُ إلى أنّهم يتحدّثون إليهنّ بأجساد منتصبة مثل أعْمدة الإنارة. وعلى العكس، عندما نتحدّث إليهنّ يبدو أنَّ أجْسادنا تَخزُنا لِكثرة ما نحكُّ جلودَنا ونتحرَّك. قمتُ بدراسة ممثّلي السّينما جيّداً مؤخّراً، لهذا أصبحوا ممثّلي سينما. أرى أنّني لستُ قبيحاً، كما أنّني لستُ وسيماً. إيديث تجدُني بين بين، وأنا أتّفق معها، أنا أيضاً أجدُ نفسي بين بين. أحدُ

الرِّجال الذين يسير حالُهم جيّداً مع النّساء في السّينما هو روبرت ميتشوم، ولا يمكن أنْ يقول أيّ شخصٍ إنّه وسيم.

أرى بصوابِ رأيِ الفلاسفة الذين يقولون إنَّ الحُبَّ ليس مُتعلّقاً بما هو جسديّ فقط. هناك في تشيلي كان هناك رفيق يُدعى جواتون أوسوريو، ولمْ يكن بديناً إلى حدٍّ ما فقط، كان بديناً بديناً، بديناً بكلّ معنى الكلمة. كانت لديه خطيبةٌ اسمها ماريا، وكانت أجمل امرأة عرفتها طوال سنواتي الأربع عشرة، بما فيهنّ النّساء اللّائي رأيتهنّ في السّينما، والمسرح، والتّلفاز. سألت أبي عن مآل «البدين»، وواصلَ أبي قراءة الصَّحيفة بالاسْتعانة بمُعْجمٍ، وقال لي: إنّه انضمَّ إلى المقاومة، كان هذا خبراً جيّداً للغاية؛ لأنّني من مُعْجبي «البدين»، الذي كان اسمه الحقيقيّ خوان كارلوس أوسوريو.

أعتقد أنَّ أبي ابْتهج عندما قال هذا، فكلّما سألته عن شخصٍ ما يقول: إنّه سجينٌ، أو إنّه مات، أو إنّه في كندا، أو رومانيا، أو أفريقيا، في أيّ مكانٍ. سألتُ أبي كيف يمكن لِرجُلٍ مثل أوسوريو أنْ يعيش في الخَفاء. لأنّ أيّ شخصٍ يراه سيُدرك على الفَور أنّه أوسوريو. لا توجد طريقةٌ لتنكُّر شخصٍ بدينٍ، وكالعادة قال أبي: إنّه سيقطع خِصيتي؛ لأنّني أسأل أسئلةً سخيفةً. لا بدَّ

من أنّكم قد أدركتم أنَّ أبي يعمل على تربية أبنائه بحُبٍّ وحماسٍ.

في الواقع، يقوم أبي بإعطاء دروس الإسبانيّة طوال اليوم، وبالطّبع يتعلّم الألمانيّة قليلاً، وكلّما جاء خبرٌ عن أمريكا اللّاتينيّة في التّلفاز يصيح مُنادياً لكي آتي لأُتَرجم له. الأخبارُ التي تأتي عن تشيلي سيّئة باستمرار، وأبي يشاهد نشرات الأخبار كلّها في التّلفاز، يتجرَّع برامج «هايته» (2) و«تاغيشاو» (3) المُتاحة كلّها. الرّجُل لا يُدرك أنَّ يوم سقوط بينوتشيه سيكون عيداً قوميّاً في أنْحاء العالم كلّها، ستمتلئ الشّوارع بالأعلام، وستنطلق الطّيور في الطّيران بجنونٍ. باستثناء عائلة الجنرال بينوتشيه، أعتقد أنَّ سقوطه لن يُثير حُزن أيّ شخصٍ آخَر، وعندما سيذهب إلى السّجن، أعتقد أنّ تلقّيه للزّيارات سيكون صعباً. من الصَّعب للغاية أنْ يذهب شخصٌ ما لزيارته في السّجن، ولا حتّى الرّاهبات، هذا هو رأيي.

في البداية شعرتُ بأنّني مُهَمَلٌ أكثر من عقب سيجارةٍ في برلين، وما زاد الوضع سوءاً أنّهم ألْحقوني مع أخي الصَّغير بمدرسة الحيّ مباشرةً. عندما كانوا يقولون لنا: «جوتين مورجين»، أيْ: «صباح الخير»، كنّا نعتقد أنّهم يسبّوننا بأمّهاتنا.

كان الفِتْيانُ طيّبين للغاية، وكانوا يقتربون منّا ليسألونا عن أحوالنا، لكنْ كان كلُّ ما يمكننا أنْ نفعله هو الابتسام مثل البُلَهاء.

بدأتُ تَعَلُّم الألمانيّة بينما ألعب كرة القدم في الفُسحة. كانوا يضعونني في مركز قلب دفاعٍ، وهناك كنت ألعب بحماسٍ شديدٍ، فتعلَّمتُ كلماتٍ بذيئةً عديدةً: «لَعين»، «تيّس»، «أعْرج». كنت أفتحً ذراعيَ، وأنظر إلى المُهاجم السّاقط على الأرض، وأقول: «لمْ يحدثْ أيّ شيءٍ». كنت أقول هذه العبارة دائماً. وهكذا أطلقوا عليَّ: «لمْ يحدث أيّ شيءٍ» كاسْم شُهرة، ومازال بعضهم يرفعون أيديهم عندما يرونني ويقولون: أهلاً يا «لمْ يحدث أيّ شيءٍ».

إنْ كنتم تعتقدون أنّني عشْتُ تلك الأيّام في هناءٍ، فأنتم مُخطئون. لقد عشتُ أيّاماً سيّئةً، سيئةً للغاية. عندما كنت أرجعٍ إلى البيت، كنت أرى أمّي تبكي دائماً، ليس لأنّها تطهو بصلاً، كانت بعض الرّسائل تَصل من تشيلي، وتأتي بتأثير يشبه تلويث ماء خزّان الماء بالكامل، على هذا كنت أُفضّل أنْ تبكي أمّي؛ لأنَّ أبي لمْ يكنْ يبكي على الإطلاق، لكنّه كان يطيحٍ الأثاث رَكْلاً، وعندما نكون في متناول يَده، تُصيبنا ضربة

طائشةً. دائماً ما كان أبي وأمّي يدخلان في نقاشات حادّةٍ، هي تقول إنّها تريد العودة إلى تشيلي، إنّهما يجب أنْ يكونا هناك في قلب المعاناة مع الرّفاق، لكنّ أمّي كانت تُدرك بعد ذلك أنّها عاطفيّةٌ للغاية، لكنّ الأمر المؤكّد أنّ أيّ رسالةٍ تصل من هناك لم تكن تخلو من أخبارٍ عن رفيقٍ ميتٍ، أو مسجونٍ. اعتدتُ فتح صندوق البريد صباح أيّام السّبت، وإنْ كانت هناك رسائل لا أعطيها لهما حتّى يوم الاثنين، وبهذا على الأقلّ لمْ يكن أبي وأمّي يُفسِدان عطلة نهاية الأسبوع. إنْ عرفَ أبي بهذا ذات يومٍ، من المؤكّد أنّه سيناولني «ضربةً قاضيةً»، وهكذا كانت حياتي صعبةً في البداية.

أصدقائي الأوائل كانوا من اليونان. كانا اثنين، وفي العُمر ذاته. بالطّبع كان اسْماهما غريبين؛ كان أكبرهما يُدعى هوميروس، والصَّغير سُقراط. هوميروس وسُقراط كومديس، كانا يتحدّثان الألمانيّة جيّداً، لأنّهما كانا يعيشان هناك منذ أكثر من خمس سنوات. تعرّفا إليَّ ذات يومٍ بينما كنت آخذُ حَمّام شمسٍ مُستنداً إلى الجدار، وكنت أبري قلمَ رصاصٍ. قالا لي بالإسبانيّة: «كيف حالك يا رفيق؟ كانت هذه هي الكلمات الوحيدة التي يعرفان نطقها بالإسبانيّة، لكنّني أقسم أنّهما كانا

طيّبين معي للغاية حتّى عودتهما إلى اليونان قبْل وقتٍ قليلٍ.
عندما اقترب منّي هوميروس في ذلك اليوم، قال بينما يرفع إصْبعاً من يَده اليسرى: «بينوتشيه»، ورفع إصبعاً من يَده اليمنى بينما يقول: «يوانيديس(4)»، وبعد ذلك مرَّر يَده على عنُقه، كأنّه يجزّه، وقال: «ذات يومٍ سيَسْقُطان»، وقلتُ: «سننتصر».
هوميروس وسُقراط كومديس كانا أوّل أصدقائي المُقرّبين، أخذاني إلى بيتهما، وعلّماني شُرْبَ النَّبيذ والرّقص مثل زوربا، وأهمُّ شيءٍ تعلّمته منهما هو الكلام بالألمانيّة.

ذات يومٍ كنت في بيت السّيّد كومديس، وطلب إلينا الرّجُل أنْ نرتدي ملابسنا، لأنّنا سنذهب إلى المسرح، وذهبنا، لكنّه لمْ يكنْ مسرحاً بالطّبع، كانت صالةً شبيهةً بمسرح الجامعة. كان هناك أفرادٌ كثيرون يجمعون التّبرُّعات في حصّالاتٍ، وقال لي هوميروس: إنَّ المال كلّه سيذهب إلى مساعدة النّاس الموجودة في اليونان، جمعنا ماركاً واحداً، ووضعْناه في الحصّالة. حينئذٍ جاء مُطربٌ، وأخذ يُغنّي مع فرقةٍ تعزف على آلاتٍ لا أعرفها، وكانت إحداها تشبه «التشارانجو»، الآلة الوتريّة الصَّغيرة.

كانت لدينا فِرَقٌ جيّدةٌ للغاية أيضاً. لا أعرف إنْ كنتم

تعرفون *كيلابايون*، *إنتي-إياماني*، *وليبراثيون أمريكانا*، لكنّ الفارق مع اليونانيّين أنَّ الجميع قد وقفوا على أقدامهم عندما بدأ المُغنّي، ورفعوا قبضاتهم إلى أعلى، وأخذوا يغنّون مع الفرقة حتّى انتهى الحفْل. هوميروس أيضاً كان يبكي. عندما خرجنا، قام السّيّد كوميدس، الذي أعتقد أنّه يبلغ المتريْن طولاً، برفْعي عالياً، وضمَّني بقوّةٍ، وقال لي: «سننتصر». أعتقد أنّني كنت سأذهب إلى اليونان مع هوميروس وسُقراط إنْ لمْ أوطِدْ صداقتي بإيديث.

ذات يومٍ نهضتُ مُبكّراً للذّهاب إلى المدرسة، ووجدتُ أبي في المطبخ يسمع الأخبار في الرّاديو الذي كان صوته على أقصاه. أمرني بالصَّمت بإصْبعٍ على فمه، وأعددْتُ خُبزاً بالزّبْد، وبقيت لأسمع الأخبار معه. عندما انتهى البرنامج كان أبي عاجزاً عن التّنفُّس تقريباً. سألني: «ماذا فهمت؟». قلت له: «لقد سقط يوانيديس». وسألني: «هل غسلتَ أذنيك جيّداً في الحمّام؟». أجبته: «نعم يا بابا». وسألني: «ماذا فهمت ممّا قِيلَ في الرّاديو؟» «ما قلت لك يا بابا، لقد سقط الفاشيّون في اليونان».

حرَّك أبي رأسه ببُطْءٍ، وتناول فنجان القهوة ببُطْءٍ شديدٍ حتّى القطْرة الأخيرة. لمْ أتحرّك من مكاني. كان أبي ذاهلاً تماماً.

اعتقدتُ أنّه سيموت فجأةً. بعد خمس دقائق، أبْعدَ نظرته عن الفنجان، وقال لي: ماذا تفعل واقفاً هناك؟ تعال هنا لتحضنِ أباك»، وحينئذٍ كنتُ أنا من أوْشَك على الموت، اقتربتُ وضمَّ أبي رأسي بقوّةٍ، احْتضني وأبقاني لوقتٍ معتبرٍ مضموماً بجوار قلبه، بعد ذلك قال لي: «هيّا، اذهب إلى المدرسة لترى أصدقاءك. إنّك تضيّع الوقت في المطبخ، وستصل إلى المدرسة متأخّراً».

ذهبتُ جَرْياً فوق حذائي أديداس أوليمبيا، وهو النوع الذي يرتديه بكنباور(5). وصلتُ في آخر لحظةٍ، لكنَّ هوميروس لْم يكن في الفصل. قلت لإيديث: إنّ يوانيديس قد سَقط، وفتحتْ عينيها دهشةً، ووضعتْ أظافرها في فمها، وأعجبتني رؤية كيف تتخلّل الشّمسُ شَعرها المتموّج على شاكلة الهيبيز. كنت أُطلق على إيديث لقب «صاحبة الشّعر المتموّج».

لْم أرَ سُقراط في الفُسحة أيضاً، ولْم يمكنني التّركيز في أثناء حصّة الرّياضيّات، وقبل الحادية عشرة اقتربت من المُعلّمة، وقلت لها: إنّني أشعر بألمٍ شديدٍ في معدتي، وإنّني سأذهب إلى البيت. في الحادية عشرة وخمس دقائق كنت في بيت آل

كومديس في شارع «فيكليف»، وأوّل شيءٍ رأيته، بالإضافة إلى أنّ الباب كان مفتوحاً على مِصراعيه، أنَّ الرَّدهة كانت خاليةً تماماً، وكان هناك شخصان لا أعرفهما نائمين على الأرض.

سِرْتُ في الطّرقة حتّى الغرفة، ودققتُ على الباب دقّاً خفيفاً. «ادخل»، كان صوتُ السّيّد كومديس. كان صوته أجشَّ وضخماً، مثل شاربه. أبي أيضاً لديه شاربٌ هائلٌ، لكنّه لا يمتلك صوتاً أجشَّ هكذا. كنت قد انتبهت إلى أنَّ الألمان لا يُطلقون شواربهم كثيراً. كان السّيّد كومديس عارياً تماماً في الفراش، وإلى يمينه كان هوميروس نائماً، عارياً تماماً أيضاً، وعن يساره سُقراط الذي كان عارياً تماماً، من دون اختلاف، وفي آخر الغرفة كانت السّيّدة كومديس تفرك عينيها أمام المرآة، وكانت ترتدي «روباً» للجلوس على الشّاطئ، لكنْ كان واضحاً أنّها لم تكن ترتدي أيّ شيءٍ تحت «الرّوب»، وأنّها كانت عاريةً تماماً أيضاً.

كان أنفُ السّيّدة كومديس كبيراً إلى حدّ ما، لكنّها كانت تنظر بثبات إلى العينين عندما يتحدّث معها المرء، كأنّه أكثر الأفراد ذكاءً في برلين، ليس لأنّها أمُّ هوميروس وسُقراط، لكنّني من المشجّعين المتعصّبين للسّيّدة كومديس.

انتبهتُ فجأةً إلى أنّ الجدران عاريةٌ، وعندما نظرتُ إلى الأرض رأيت الحقائب ممتلئةً. عَددتُ ما رأيت كلّه، وخرجتُ باستنتاجي. أدرك السّيّد والسّيّدة كومديس بسرعة أنّني فهمتُ كلّ شيءٍ. عندما يكون السّيّد كومديس لطيفاً، تصدر من أعماقه نظرةٌ تشبه نظرة الكلب الكبيرة. كانا ينظران إليّ كأنّهما خطيبان يجلسان على صخرةٍ أمام البحر، وأنا الأفق الشّاعريّ ذاته.

- «هل عرفتَ بما حدث؟». سألني بهدوء، وبصوتٍ أجشّ، كأنّما لكي لا يوقظ ابنيه.

أحْنيتُ رأسي موافقاً، ضغطتُ بقوّةٍ على أسناني، وبقوّةٍ أكبر ضممتُ قبضتي اليُسرى، وعندما رفعتها، هَززتها كأنّها تدقّ السَّماء. رفع قبضته، لكنّه لمْ يهزّها، على الرغم من أنّ عُنقه قد انتفخ، وتكوّن ما يشبه الوعاء تحت شاربه. إنْ دخل شخصٌ ما في هذه اللّحظة، ورأى كلٌّ منّا بقبضته إلى أعلى، ورأى السّيّدة بالرّوب، بينما هوميروس وسُقراط يشْخران، كان سيحملنا إلى مستشفى المجانين على الفور.

فِي تلك اللّيلة دَعا السّيّد كومديس أبي وأمّي لنأكل معاً. جاء أبَوايَ لأنَّ بيتنا كان يفتقد إلى الكثير من الأشياء، وقال آل كومديس: إنّنا يمكن أنْ نأخذ ما نريد، على الرغم من أنّهم كانوا يمتلكون القليل. لمْ يكونا كاذبين، لكنْ كانت هناك أشياءُ جميلةٌ على الجُدران، كانت السّيّدة كومديس قد نَسَجتها، وأهْداني هوميروس سُترته الثّقيلة المُبطّنة بصوف الشّياه. قال لي هوميروس: إنّهم لا يحتاجون إلى ملابس شتويّةٍ في اليونان.

أعْطاني إيّاها في اليوم التّالي في الفُسحة، عندما صدر النداء لكي نصعدَ إلى القاعات. وودّعت المُعلّمِين باسم هوميروس وألقيت كلمة عاطفية.

في هذا الشَّهر تحاول أمّي الحُصول على سُترةٍ أُخرى لي؛ لأنّني نَمَوْتُ فجأةً. أعتقد أنَّ هوميروس أطْولُ منّي، حسْبما رأيته في الصّورة التي أرسلها إليّ من أثينا. أنا مدعوٌّ إلى اليونان في الصّيف المُقبِل، وأعتقد أنّني سأذهب؛ لأنّني سأخبركم بسرٍّ، وهو أنّني أعمل. أذهبُ إلى مَتْجَر «البرخت» الموجود في الحيّ بعد المدرسة، أعمل لمدة ساعتين في ترتيب الصَّناديق الكرتونيّة، وأكْنس القُمامة المُلقاة على الأرض كلّها.

بالطّبع لنْ أصبح روكفيلير، لأنّني أعطي شيئاً من المال لأبويّ ولأخي الذي يلتهم ثلاث مجلّات مصوّرة كلّ يومٍ، ولأنّني أدعو إيديث إلى السّينما، وإلى صالات الرّقص، على الرّغم من هذا كلّه، ادّخرت ثلاثمئة مارك، ومنذ هذه اللّحظة حتّى حزيران/يونيو، سأدّخر المزيد لكي أستقلّ الطّائرة ذهاباً وعودةً إلى اليونان. يُقال إنَّ النّبيذ اليونانيّ الأبيض هناك أفضل ممّا يُباع في الحيّ.

الآن ترونني على سجيّتي، ولا توجد أيّ مشكلة، لأنّني أحكي لكم من دون ترتيبٍ، وفي قفزات زمنيّة، لكنْ كان هناك زمن حيث كنت أكثر أطفال برلين حُزناً. أشعر بالخجل من أنْ أحكي ما يلي: لا أُحبُّ أنْ أقول إنّني كنت «طفلاً»، لأنّ أبي أخبرنا أنَّ الطّفولة قد انتهت بالنّسبة إلينا بدْءاً من تلك اللّحظة، وأنّ الظّروف ستكون صعبةً للغاية، وأنّنا يجب أنْ نتصرّف بدْءاً من الآن كرجُلَيْن، وألّا نطلب أشياء، لأنّنا لمْ نكن نجد ثمن الطّعام، وأنَّ الألمان لديهم روحٌ تضامنيّةٌ أكبر من السُّفن، لكنْ يجب علينا أنْ نَنبش بأظافرنا لكي نظلّ على قيد الحياة، وأنّ المال الذي نجمعه من الألمان يجب أنْ يذهب إلى الرِّفاق الموجودين داخل تشيلي، وأنّ كلّ «بيسو» ينفقونه علينا هنا يُطيل عُمر

الفاشيّة هناك يوماً آخَر. قال أبي: إنّه ينتظر أنْ نتصرّف كرجلَيْن، وألّا ندخل في مشكلات، وأنّنا نعيش هنا كلاجئَيْن سياسيَّيْن، وإنْ تورّطنا في أيّة مشكلات سنُطْرَد. أبي متخصّص في إلقاء مثل هذه الخُطَب. سِرْنا على أطراف أصابعنا خلال أسبوع. كنّا نصعد الطّوابق الخمس حتّى الشّقّة كالأشباح؛ لكي لا تشكو الجارات الهَرِمات، وطوال ستّة أشْهُرٍ لم نَرَ لونَ اللّحْم، باستثناء قطعةٍ من النّقانق التي دخلت حيواتنا بالخطأ.

بالإضافة إلى هذا كان الوقت شتاءً، كنت أطوف «تيرجارتن» بالكاملِ بحثاً عن شيءٍ من الشّمس. شمسُ برلين هي الشّيء الوحيدُ الرَّخيص، لكنّها شحيحةٌ للغاية. تعلَّمتُ ثلاثَ كلماتٍ بالألمانيّة. كنت أعْبُر «تيرجارتن»، وأدخل محطّة قطارات «بيلفوي»، ثمَّ أتّجه إلى حديقة الحيوان، وبعد ذلك كنت أجوب شارع كودام بالكامل، هذا كلّه من دون نقودٍ، بجيوبٍ خاوية ومستويةٍ كالزّيّ العسكريّ. إن أمسك بي شخص ما ورجّني، لَمْ يكنْ سيصدر رنينُ أيّة عُملةٍ ماليّة. الآنَ، بينما أفكّر في الأمر جيّداً، أعتقد أنّني لَمْ أكنْ أكثرَ أطفال برلين حُزناً، إنّما أوروبّا؛ لأنّ كَون المرْء حزيناً في برلين شيءٌ لا أنصح به أيَّ شخصٍ، وأنْ يكون المرءُ حزيناً من دون «بفينيج» واحدٍ،

فهو سببٌ لأنْ يبكي صارخاً.

عندما يكون البرد قارساً، أدخل الطّابق السّادس في مَتْجَر «كا دي في»، وهناك لمْ أكنْ أعاني كثيراً. دائماً ما توجد آنساتٌ تَعرِضْنَ عيّنات للدّعاية في قِسْم الأطعمة، وكنت آخذُ من الأصناف كلّها: قطعة جُبْنٍ، بعد ذلك قطعة بسكويت، ثمَّ شوكولاتة، كوب نبيذ، جمبري صغير مسلوق. إنْ قام المرءُ بجولة كاملة يمكنه أنْ يتناول الغداء. لمْ أكنْ أموتُ من الجوع. الآنَ يعملُ أبوايَ، بلْ ويمكننا أنْ نسمح لأنفسنا بكيلو من اللّحم المفروم من حينٍ إلى آخَر، لكنْ في تلك الشّهور الأولى كنت الوحيد الذي لمْ يكنْ شاحباً. ذات يومٍ كانوا يئنّون في البيت من الجوع، والبّرد، والحُزْن، والفاشيّة، وقلتُ لأبويّ: لماذا لا نذهب جميعاً إلى الطّابق السّادس في مَتْجَر «كا دي في»، ونتناول الغداء؟ ضربني أبي بيدِه؛ لأنّني أتحدّث بترّهات، لكنْ ذات يومٍ آخَر، بينما كنّا في وسْط المدينة من أجلٍ أحد إجراءات اللّجوء، لاستخراج الشّهادة الصّحّيّة في شارع نورينبرجر، قال أبي: إنّه يموت من الجوع؛ لأنّهم أخذوا منه دماً للتّحليل، وسألني عن مَتْجرٍ «كا دي في»، وبما أنّنا كنّا هناك، ذَهبنا.

في ذلك اليوم أمْضيتُ وقتاً طيّباً للغاية مع أبي. ظللنا نأكل خلال ساعة تقريباً، وشرب أبي كثيراً؛ شرب ثلاثة أصناف من نبيذ الألزاس، وخرج وهو يصفر بنغمات التانغو. قال: إنّني شخصٌ ذكيٌّ للغاية، لكنْ لا يجب أنْ أدخل في مشكلاتٍ مُطْلقاً. طلب منّي الحذَر من الوقوع في أمْرَيْن: السّرقة والماريجوانا. النّاس هنا تُحبُّ هذَيْن الأمْرَيْن. أخبرني أبي أنَّ أيّاً من هاتيْن الحماقَتَيْن ستكون كفيلةً بطَرْدنا من البلاد. كان سعيداً للغاية، لكنّه كان يبتهج أيضاً بينما يُلقي بخُطَبه. أعتقد أنَّ أبي سيصبح عضواً في البرلمان آجلاً أم عاجلاً.

ما لمْ يقُلْه لي أبي إنّ أشياء أسوأ يمكن أنْ تقع. وأحد هذه الأشياء الأسوأ وقع لي. كنت أكثر شخصٍ في برلين إنْها كاً.

كنتُ أمْضي وقتاً طويلاً في ذلك المحلّ الخاصّ بالمجلّات في يواكيمستالير، كان متْجراً جميلاً للغاية، به صُحُفٌ أجنبيّةٌ، ومجلّات كوميكس، ومجلّاتٌ رياضيّةٌ. كنت أمضي السّاعات في تصفُّح مجلّات الكوميكس، خصوصاً في ذلك الشّتاء الشّهير. كان الجوّ دافئاً في الدّاخل، ولمْ أكنْ أقرأ المجلّات، لكنّني كنت أتلهّى بالنّظر إلى الصّور. كان قسْم المجلات الإباحية في نهاية المحلّ. كنتُ أدخل هناك أحياناً، لكنّ الباعة

كانوا يَطردونني.

بالإضافة إلى هذا كنتُ في حاجةٍ إلى التّوقُّف عن رؤية صور النّساء، وأنْ أفعل كلّ ما أستطيع لكي أثبت جَدارتي؛ لأنَّ شَعري قد نَبَت، وكنتُ أحلم بامتلاك شارب مثل شارب أبي، أو شارب السّيّد كومديس. كنتُ أحلم بالنِّساء كثيراً، وكنتُ آخذُ في تخيُّل أنّني أقول لهنّ كلمات لطيفةً، وهُنَّ يضْحكْنَ منها، كنتُ أتخيَّل حواراتٍ بالألمانيّة، كنتُ قد حفظتها من حكاية «الحياة الشّابّة».

توقّفتُ عن الذّهاب لتصفُّح المجلّات عندما أصبحت مهووساً بالرّاديو المحمول. كان صغيراً يابانيّاً، جاء به أبي ليسمع الأخبار في البيت. كان به شيءٌ يُوضَع في الأذنين، وسرعان ما عرفتُ نغَمات أنْجح الأغاني أسبوعيّاً. كنتُ أذهب إلى شارع كودام بالسّلك مُتدلّياً من أذني، وعندما أسمع كلمةً تروق لي، كنتُ أفتحَ المُعْجم، وآخذُ في تكرارها حتّى أحفظها. بعد شهرٍ أصبحتُ أعرفُ الأعمال الكاملة للحماقة البشريّة.

أُدركُ الآنَ أنّ المرْء لا يحتاج إلى معرفة كلمات الأغاني التّافهة؛ لكي يحصل على صديقةٍ. أعتقد أنّني خرجتُ بهذه

الفكرة من المجلّات، حيث كان المغنّون المشهورون يظهرون دائماً في صورٍ مع فتيات جميلات، بعد ذلك تعلَّمتُ أنَّ المرْء لا يحتاج إلى الكلمات أيضاً، وهكذاً كنتُ أكثر شخصٍ يعرف أغانٍ في برلين.

كنتُ أتخيّل أنَّ هناك مسابقةً في التّلفاز، ويعزفون النَّغَمات الأولى من أيّةِ أغنيةٍ، ويجب أنْ أقول اسْمها على الفَوْر، وأربحَ أيّ مبلغٍ من الماركات الألمانيّة. كان الكلُّ منبهرين بي في المدرسة. إنْ كنتم قد رأيتموني بحقيبتي على ظهري، والرّاديو متّصلاً بأذنيّ، وبالقاموس والدّفتر، لكُنتم قد منحتموني ميداليّة أكثر أفراد العالم سخافةً.

بالطّبع يوجد جانبٌ إيجابيٌّ في كلّ شيءٍ. كنت راغباً دائماً في سَماع أنجح الأغاني، فبدأت في دُخول محلّ الأسطوانات إليكترولا ميوزيك هاوس في شارع كودام، قبْل الوصول إلى «أوهلاند». كنت أشيرُ بإصْبعي إلى الأغلفة، وأطلب أنْ يضعوها في مُشغّل الأسطوانات. لا توجد أدْنى أهمّيّة لهذا كلّه. أحكيه فقط لأنّني عرفتُ صوفي بهذه الطّريقة.

الآنَ، بينما أعيش في علاقةٍ مع «ذات الشَّعر المُتموّج»،

يمكنني إدراك أنّني لَمْ أعشق صوفي مُطلقاً. كانت أكبر منّي بخمس سنواتٍ تقريباً، ولَمْ تكنْ ملكة جمال «تشارلتونبرج»، لكنّها كانت أوّل امرأةٍ أدخلُ في علاقة معها، أوّل امرأة يحدث بيني وبينها شيءٌ ما. أدركتُ منذ أوّل لحظة أنَّ شيئاً ما سيحدث بيننا. كانت صوفي تمْتهِن أكثر مِهَن المدينة إثارةً؛ كانت تتعامل مع البُلهاء كلّهم الذين لا يجدون شيئاً ليفعلوه، مثلي، ويدخلون «إليكترولا ميوزيك هاوس» ليتجرَّعوا كيلومتراتٍ من شرائط الآنسة «ليناردوس»، والآنسة «ماثيو»، والمثقّف البارز «أودو يورجينز».

كانت أكبر منّي عُمراً، لكنْ طولُ قامتها مُساوٍ لقامتي تقريباً، وكان وجهها صغيراً مثل الأرنب، وعيناها كبيرتَين، وكلّ بُرهةٍ تخفق رموشها الزّائفة المُحَمَّلة بأوقيّةٍ من مستحضرات التجميل. كانت رموشُ صوفي هي الزّيفُ في حدّ ذاته، لكنّ نظرتها لَمْ تكن كذلك. كانت أكثر الباعة الذين عرفتهم قُدرةً على الإقناع، بما فيهم من يبيعون جريدة «دي فارهيت»(6) في شارع تروم أيّام السّبت، لدى الخروج من مباريات هيرتا.

لنفترض أنّ المرْء يطلب منها «صباح جديد» للفيلسوف أودو

يورجينز، في البداية كانت تبتسم وتضع في أعماق عينيها ما يشبه بحيرةً زرقاء، وبعد ذلك كانت تأخذ في قول العبارات المعهودة: «إنّها أسطوانتي المُفضَّلة»، وهو ما كانت تقوله عن الأسطوانات كلّها من دون تبديل.

لمْ يكن هذا يهمّني في أيّ شيء، لأنّني لمْ أشترِ منها أيّة أسطوانة، وكنتُ ذكيّاً في هذا، لأنّني أعتقد أنّها بدأت تُعجب بأنّني كنت أمرُّ ببيت الأسطوانات أيّام الأسبوع كلّها من دون أن تزلّ قَدمي، بعد ذلك كانت تضع الإبْرة على الأغنية المختارة، وتضمُّ راحتيها حتّى تبدأ في الصُّدور.

وعندما تَصل هذه اللّحظة المفصليّة في حكاية حياتها، تبدأ في مصاحبة كلمات المُغنّي بصوتٍ خفيضٍ، بينما تنظر إلى المرْء، كأنّها تغنّي له الأغنية. كنت أعتقد أنّني أعشق صوفي بجنونٍ، وعندما كانت تتحدّث مع زبائن آخرين كنت أنظر إلى صدرها جيّداً، وأحْلم بعَضّه. كانت تعرف كلمات أغاني العالم كلّها. أعتقد أنَّ الربَّ قد خلق هذه الوظيفة من أجل صوفي براون. كانت بائعةً ممتازةً.

لأسبابٍ يمكنكم تفهُّمها لمْ أدخل محلَّ المجلّات بعد ذلك

مُطلقاً. قمتُ بطَحْن عقلي بينما أحاول العثور على طريقةٍ لكي أعرض عليها اهتماماتي الأُخرى، إلى جانب الموسيقا. في النّهاية جاءني الإلهام خلال حصّة التّاريخ.

في اليوم التّالي دخلتُ «إليكترولا ميوزيك هاوس»، وجلستُ في أبْعد نقاط المَتجَر بظهري مُنحنياً تحت ثقل حقيبة المدرسة. أسْندتُ ظهري إلى الطّاولة، وانتظرتُ أنْ تأتي لتتحدّث إليّ.

وجاءت بشَحمها ولَحمها، بنظرتها العميقة، ونَهديها الصَّغيرين، وشَعرها القصير الذي يحيط بوجهها الودود. «ماذا تريد أن تسمع؟». سألتني، وهنا قمتُ بجهدٍ خرافيّ، ونظرتُ إلى أعماق بُحيرتها، حيث كانت طيور النّورس، والأسماك، والمحاريّات تتقافز، ولمْ أقلْ لها أيّ شيءٍ، لكنّني حبستُ تنفّسها بنظرتي الثّابتة عليها. أمالت عُنقها قليلاً، ورفعت حاجبيها: «ماذا تريد أن تسمع؟».

قُلت لقلبي: الآن، وإلّا ضاعت الفرصة يا شجعان الوطن. وقلت لها: «لا أريد سماع أيّةِ أسطوانةٍ. أريد أنْ تغنّي لي شيئاً ما»، ولا أعرف من أين خرجت يدي وحطَّت على يَدها. كنت أعتقد أنّ الأرض ستنشقّ في هذه اللّحظة ذاتها وستبتلعني

للأبد، وسيأتي أبواي لوضع صليبٍ صغيرٍ في محلّ الأسطوانات. ضغطت على يدها بقوّةٍ لكي لا تنتبه إلى أنّها ترتعش.

حتّى تلك اللّحظة كنتُ قد رأيتُ أشياء حَمْراء: الزُّهور، والدَّم، والطَّماطم. حسناً. لتنسوا هذا كلّه، وتخيّلوا وجه صوفي براون. في تلك اللّحظة شعرتُ أنّني كسرتُ الحاجز، ستصبح خطيبتي. ظلّت مُتّقدةً في مكانها مثل جان دارك، وبينما كانت تزداد احمراراً، كان الهدوء يتملّك منّي. شعرتُ بأنّني أكبر نجوم السِّينما، حينئذ أدرتُ يَدها بنعومة، وأعطيتها قُبلةً قصيرةً في فمها. هل تتذكّرون الحريق الذي استمرَّ خمسة أيّامٍ في هانوفر؟ لتنسوا هذا. وضعتْ يَديها على وجنتي، ودفعتْ وجهي إلى الخلْف، لكنْ ليس كأنّما تدفعه، إنّما كأنّها تلاطفني. «أبله»، قلتُ لنفسي، وأخذتْ تنظّف الطّاولة بفوطةٍ صفراء. لا أعرف لماذا كانت تجتهد في تنظيف الطّاولة إن كانت بلا شائبةٍ.

حسناً. مررتُ بأوقاتٍ عصيبةٍ للغاية في برلين. لمْ أسرق قطعة علكةٍ، لمْ أجرّب سيجارة ماريجوانا مُطلقاً، لكنّني دخلتُ في أكبر مشكلةٍ في تاريخ ألمانيا، وهذا كلّه بسبب صوفي. في ذلك الوقت كنت قد تعرّفت إلى آل كومديس، وذات يومٍ حدّثتهم عنها بَوحاً، وحكيت لهم ما قلت لكم قبْل قليلٍ، وبالكلمات

ذاتها. كنت أعرف أنَّ هوميروس قد فقد عُذريّته، وكنت قد أخبرته أنّني أريد الخروج من زُمرة الخاسرين والبُلَهاء، لكنّني لمْ أعثر على الفرصة مُطلقاً. أعتقد أنَّ اليونانيّين فلاسفة رائعون؛ لأنَّ هوميروس ظلَّ طوال يومٍ كاملٍ يفكّر في التّكتيك المناسب، بينما كنّا ندخّن مُستلقين على فراش السّيّد كومديس. من حينٍ إلى آخر كان يفكّر بصوتٍ عالٍ، وعلّمني طريقةً للكلام باليونانيّة، وكان يُطلق عليها «المنطق»، وطرح عليَ المثال التالي: «البشر كلّهم فانون. سُقراط أحد البشر، وبالتّالي فإنَّ سُقراط فانٍ». كان يتحدّث هكذا دائماً، بثلاث جملٍ متتالية. قال بين نفثةٍ وأُخرى: «النّساء كلّهنّ يحتَجْنَ إلى الحبّ. صوفي امرأةٌ، وبالتّالي صوفي تحتاج إلى الحُبّ»، وقال: «الرّجال كلّهم يحتاجون إلى الحُبّ. أنت رجُلٌ. أنت تحتاج إلى الحُبّ»، واستمرَّ هكذا بسرعةٍ متزايدة، وفي كلّ مرّةٍ كان يقول شيئاً، ويسألني: «أليس كذلك؟» وبالطّبع، لمْ أكنْ أجدُ أيّ خطأ فيما يقول. إنْ اهتمّ هوميروس بالدّراسة، يمكنه أن يصبح فيلسوفاً كبيراً.

كان فيلسوفاً متفائلاً. قال: «الرّجال والنّساء كلّهم في حاجةٍ إلى الحُبّ. أنت وصوفي رجُلٌ وامرأةٌ، بالتّالي أنت وصوفي في

حاجةٍ لأنْ تتحابّا». كان هوميروس يفكّر بطريقةٍ منظّمةٍ دائماً. كان يقنعني، ولمْ أناقشه في فصلةٍ واحدةٍ على الإطلاق.

ذات ليلةٍ صاحَبتْني صوفي إلى بيت أورس، لأنّ عاماً على الانقلاب العسكريّ في تشيلي أوشك على الاكتمال، وكنّا جميعاً نعمل بجنونٍ في رسم اللّافتات من أجل المسيرة التي ستتمّ في ميدان سافينجي. وضعوني في فريقٍ من الرّسّامين، لأنَّ الآباء كانوا يضلعون بتنظيمِ أمورٍ أخرى، والأمّهات تصْنَعْنَ مشغولاتٍ يدويّةً تشيليّةً، ويبِعنها أينما استَطعن. في أيلول/سبتمبر يمكن الحصول على ثلاثين ألف مارك على الأقلّ، وأنا لستُ بيكاسو، ولا أشبهه في أيّ شيءٍ، لكنْ بمساعدة صوفي كنّا نرسم اللّافتات حتّى الثّانية صباحاً.

كان الأمرُ يشبه الوجود في بيتنا في سنتياغو تماماً، عندما كنّا نذهب إلى فعاليّات ألليندي وتصطفُّ الأتوبيسات أيضاً. عندما أردنا العودة إلى البيت، كانت محطّة القطار مُغلقةً بالسّلاسل. أخذْنا نسيرُ بينما ندخّن ونمضغ العلكة، وكنت أحيطُ خصْر صوفي بذراعي، وأتلاعب بأصابعي التي منحني الرَّبُّ إيّاها لكي أتسلّق كمن يفعل هذا عفواً. كانت قامة صوفي مثل قامتي، وهكذا عندما كنّا نسير في الشّارع ليلاً كنّا لائقين تماماً.

في الحقيقة أرى أنّني كنت كبيرَ الحجْم بالنّسبة إلى عُمري، على الرغم من أنّ أمّي تقول: إنّني لنْ أنْمو، لأنّني أمْضي اليوم بالسّيجارة في فمي. بينما كنّا على مبعْدة مربّعٍ سكنيّ واحدٍ من بيت صوفي، فُزتُ بالجائزة الكبرى في اليانصيب الّذي حدّثتكم عنه مُسْبقاً. على أبواب إحدى قاعات ألعاب الفيديو، كانت هناك شلّةٌ من البُلَهاء مثلي، بينما يتبادلون اللّكمات، ويشربون علبَ بيرةٍ. أكثرهم عقلاً كان يبدو كالنّسر الأسْود. يوجد الكثيرون هنا ممّن يحبّون الغناء كالطّيور، وحينئذٍ يدخّنون سجائر ماريجوانا، ويشعرون بأنّهم يُحلّقون مع أغنية «الحمامة البيضاء» لفريق «نينا أند مايك» الألماني من تسجيلات استوديوهات أريولا. كان واضحاً أنّهم بضْعة بلُهاء في مثل عُمري، وقبْل أنْ يقع ما وقع، كنت أعرف أنّ شيئاً ما سيحدث.

ليس لأنّني شارلوك هولمز، لكنْ لمّا رأونا متلاصقين أخذوا يترنّمون بموسيقا الزّفاف «لا، لا، لا، لا، لا». أنا -أيضاً- أقوم بالمُزاح عندما أكون مع شِللٍ، وأعرف أنّ أفضل شيءٍ أنْ يمرّ المرْء كأن شيئاً لم يحدث. بالإضافة إلى هذا فإنّ نصائح الأب الحنونة تؤثّر في المرْء، وهكذا أبْعدتُ صوفي قليلاً، وحاولنا المرور كأنّما لمْ نسمع سوى مُواءِ قِطٍ. بالطّبع لمْ يكن بإمكاننا

المرورُ، لأنّ الأربعة اقتربوا منّا، ووضعوا علبة بيرةٍ في فَم كلٍّ منّا، ودفعوني قليلاً، ثمَّ اقتربوا من صوفي ليضعوا أيديهم عليها. بالإضافة إلى هذا كان أحدهم يعرفها، لأنّه قال لها: «أهلاً يا صوفي».

كانوا يريدون أنْ نشرب البيرة، وكانوا يصيحون: في صحّة العروسين. وكانوا يريدون أيضاً أنْ تشرب صوفي من العلبة ذاتها، وهكذا قلت لهم: شكراً، ورفضتُ، وطلبتُ إليهم أنْ يدعونا نمرّ، لأنّنا في عجَلةٍ من أمْرنا. كانت هذه أسوأ فكرة خطرت في بالي في برلين؛ أوّلاً لأنّهم لَحظوا لَكْنتي، وثانياً لأنَّ تَعجُّلي في مثل هذه السّاعة من اللّيل بينما أرافق صوفي تعني أنّني أريد الذّهاب إلى الفراش معها. كان أحدهم يُسمّى هانز، وحينئذٍ نظر إليّ، ثمّ نظر إلى صوفي، وسألني عن أدائها في الفراش، ثمّ أدخل يَده تحت المعطف ليتحسّسها.

لا أعرف إنْ كنتُ قد قلتُ لكم إنّني أحدُ أكثر الأشخاص توتُّراً وعصبيّةً في برلين. أعتقد أنّني وُلدت بدمٍ مغليّ، فما إنْ سمعتُ هذا، ورأيت ذلك، حتّى انطلقت ركْلتي كقلبٍ دفاعٍ، لكنْ عوضاً عن ركْل كُرةٍ كبيرةٍ، أصبْتُ الرّكلة في كُرَتَيْن صغيرتَيْن، وحينئذٍ سقط هانز متمدّداً على الأرض، وكنتُ

كالمجنون.

«هيّا بنا». قالت لي صوفي وهي تجرُّني من ذراعي. هانز الشَّهير، كما عرفتُ اسْمه بعد ذلك، كان مُسطّحاً على الأرض، وكان يمسك ما بين ساقيه بيَدٍ، ويضع الأُخرى على رأسه، ولَمْ يكنْ يبكي على الإطلاق، وبَدا أنّه لا يستطيع التّنفُّس. ظلَّ الثّلاثة الآخرون واقفين، كما يفعل خطُّ الدِّفاع، عندما يترك المُهاجم في وضْع تسلُّل، وينتظرون أنْ يلْغي الحَكَمُ الهَدف. كانوا واقفين على أقدامهم، لكنّهم كانوا ساكنين مثل المتمدّد على الأرض.

تلخيصاً: في تلك اللّيلة لَمْ تدعْني صوفي أرْحل، لأنّها كانت تعتقد أنّهم سينتظرونني في الأسفل، بلْ إنّنا لَمْ نشعل الأضواء. سِرْنا في العتمة حتّى النّافذة، أزَحْنا السِّتارة قليلاً، ونظرنا إلى الشّارع. كان الأربعة هناك، لكنّ الذي تلقّى رَكْلتي كان على الوضع ذاته، وكان الآخرون يحاولون إنْهاضه، لكنّهم لَمْ يُفلحوا.

شعرتُ بأنَّ صوفي تتنفّس بقوّةٍ بجواري، وانتبهتُ إلى أنَّ عَرقي يَسيل. جلسْنا على أريكةٍ قديمةٍ للغاية تُصْدرُ صريراً من أجزائها كلّها، وبالكاد اكتفينا بالتّنفُّس، لأنَّ صوفي كانت

تخشى إيقاظ أمّها. ظللنا ننظر خلال ساعة تقريباً إلى الضّوء الصَّغير في مدفأة الفَحْم، بعد ذلك أمْسكتُ يَدها، وضغطنا على أصابعنا، ثمَّ أطلقناها، ثمَّ ضغطنا عليها مرّةً أُخرى، وهكذا باستمرار، بعد ذلك أخذتْ تبكي لوقتٍ طويلٍ، ولْم يخطر في بالي ماذا أقول لها. هذا أمرٌ يحدث لي دائماً، كلّما أخذ شخص ما في البكاء، لا يخطر في بالي أيّ شيءٍ. مررتُ بيَدي على شَعرها، وسألتها لماذا تبكي. قالت لي: إنّها خائفةٌ. كانت تتحدّث بصوتٍ خفيضٍ، مسموعٍ بالكاد. أطلَّت على الشّارع مرّةً أُخرى وكان خاوياً. كانت الرّياح تهبُّ، وفروع الأشجار تتشابك.

عندما وصلتُ إلى البيت كانت العائلة كلّها مجتمعةً في مجلسٍ كامل الحضور بالمطبخ. يمكن أنْ أقول: إنّهم استقبلوني بحفاوة، وإمْعاناً في التّردّي كان اليوم مُشرقاً، وبما أنّنا لمْ نمتلك مالاً مُطلقاً لشراء ستائر، كانت الأشياء تلمع، والزُّجاج يبدو كألْسِنة اللّهب.

كان أخي الصَّغير مُنطوياً على نفسه، وأنفه غارقٌ في كوب الحليب. صاح أبي: «أين كنت؟» كانت أمّي تنظر إلى الأرض، وذراعاها معقودان على الرّوب. لنْ أنجح في أيّ شيءٍ مُطلقاً، لأنّني أفتقد إلى الألمعيّة، وبالطّبع كان أبي هكذا أيضاً. من

المؤكّد أنّه كان يعتقد أنّني جئت مُحمّلاً بالزُّهري. «عليك اللّعنة، أين كنت؟». رفعتُ عيني، ونظرت إليه بعينيّ الشّخص المُنحلّ الذي كان يتوقّعه.

- «كنت أرسم». قلت له.

- كنت ترسم يا لعين؟

- نعم يا أبي.

- وماذا كنت ترسم؟

- لافتاتٍ من أجل يوم الحادي عشر.

- حتّى السّابعة صباحاً؟

- نعم يا أبي.

حينئذ جاءني إلهامُ النّظر إلى يديَّ اللّتين كانتا تشبهان لوحةً مائيّةً. كانتا مُحمَّلتين بالبقع كلّها التي يمكن أنْ تنقذني. رفعتُها مثل شابٍّ في الأفلام عندما يصوّبُ عليه المُجرمون أسلحتهم،

ولأنَّ أبي عنيدٌ، خفتُ أنْ يفكّر أنّني وضعتُ عليهما الألوان عَمْداً.

- «حسناً». قال: «يجب أنْ تخبرنا في المرّة القادمة».

ظلّ ينظر إليّ بذلك الوجْه الفخور الذي يمتلكه عندما يعجبه شيءٌ ما، وانتفخ صدره. بالطّبع أنزلتُ يديَّ مع نظرتي؛ لأنّني شعرتُ بالخجل من تلك الكذبة. شعرتُ بأنَّ فرقةً من رجال الشّرطة يمكن أنْ تدخل فجأةً لاعتقالي. بَدا لي الموقفُ كما يحدث في السّينما؛ صورة الفتى الممدّد على الرَّصيف بيديه بين فخذيه. كان أبي قد ظلّ يرغبُ في ضرب شخصٍ ما، وهكذا اتّجه إلى أخي الصَّغير، وضربه ضربةً خفيفةً على رأسه، على المكان الذي يدخل الشّعر في دوّامةٍ.

- «وأنت، ماذا تفعل هُنا، ولِمْ تذهب إلى المدرسة؟». صاح به.

أخذ أخي الحقيبة من فوق المائدة، وذهب راكضاً بينما يمضغ قطعةً من الخبز، وأنا أيضاً وضعتُ حقيبتي على كتفي، ذهبتُ إلى الحوض، وبلّلتُ جبهتي وعينيَّ.

- «ألنْ تتناول إفطارك؟». سألت أمي.

كنت في دور بطل من أبطال الوطن، وهكذا تظاهرت بالشعور بالإهانة، وصففت شعري بتمرير أصابعي، ثم ذهبت من دون النّظر إليهما.

- «لست جائعاً». قلت.

خلال فسحة التّاسعة والنّصف أخذتُ أبحث عن شيءٍ من الشّمس في أنحاء الفناء كلّها؛ لكي آخُذَ قيلولةً قصيرةً، لكنْ حتّى السّماء كانت معاديةً لي؛ لأنّ مطراً خفيفاً بدأ يتساقط بعد قليل.

دخلتُ القاعة، وحاولتُ النّوم قليلاً بذراعينِ متعاقدين على الدّكّة. ما إنْ دخلتُ في النّوم حتّى رنَّ جَرَسُ حصّة اللّغة الألمانيّة. كنت أعتقد أنّني سأنام، وأنَّ ألمانيا بالكامل ستعرف أنّني أمضيتُ اللّيلة على قدميّ مثل الخيول، وأنّهم سيضعون ترمومتراً في فمي، وسيرسلونني إلى البيت بملحوظةٍ لأبي، يجب أنْ أقوم بنفسي بترجمتها له.

لكنْ على كلّ شيءٍ، كانت إحدى أفضل الحِصص التي أتذكّرها طوال حياتي؛ لأنَّ السّيّد كولبيرجير جعلنا نتناقش حول عملٍ لبريخت، وكان الفصلُ قد شاهده في الأسبوع السّابق في ميدان هانزا. عنوان العمل «الاستثناء والقاعدة»، ويَبدو لي عملاً رائعاً؛ لأنّه يبرهن على أنّ الأغنياء يشترون القضاء، وأنّ القُضاة ليسوا مُحايدين على الإطلاق. أنا مهتمٌّ بهذا العمل كثيراً؛ لأنّ القُضاة في تشيلي كانوا يوقعون العقوبة على الفقراء بسبب أيّ شيءٍ بسيطٍ، وعلى العكس، كان يمكن للأغنياء أنْ يقتلوا، ولا يحدث لهم أيُّ شيءٍ. هناك في تشيلي، كان القُضاة منتمين إلى اليمين. لا أعرف ما هي انتماءاتهم في ألمانيا.

في الدّقائق الأخيرة طلب إلينا المُعلّم أنْ نرسم رسماً يُعبّر عن معنى العمل، ورسمتُ آلهة العدالة ممسكةً بكيس مالٍ، وقال السّيّد كولبيرجر: إنّه رسمٌ جيّدٌ. خرجتُ سعيداً من المدرسة؛ لأنّني أُحبُّ أن يسْتحسنوا الأعمال التي أقوم بها. اعتزازي بنفسي هائلٌ.

لمْ تدُمْ بهجتي طويلاً. عندما وصلتُ إلى محلّ الأُسطوانات، انخرطتْ صوفي في البكاء فوْرَ أنْ رأتني. قالت لي: إنّ هانز في

المستشفى. إنْ كانت ذاكرتكم ضعيفة، هانز هو ذلك الفتى الذي طرحته أرضاً في اللّيلة الماضية، وقالت: إنّ أخاه الأكبر يبحث عنّي، وإنّه يريد أنْ يعرف عنواني، وما إنْ يعثر عليَّ، سيجعلني أدفع الثّمن.

أصبتُ بالخرَس. ماذا يمكن أنْ أقول لها؟ كنتُ قد انتهيتُ قبْل قليلٍ من سَماع الكثير من الأغنيات الحديثة مُدويّة النّجاح، ولمْ تكنْ لديّ أدنى رغبةٍ في سَماع صوفي. قالت لي إنّ ذهابي هو أفضل شيءٍ. حاولتُ أنْ أمسك بيدها، لكنّها أبْعدتها. بينما كانت تبيع لزبونٍ آخَر، تظاهرتْ بتصفُّح كتالوج أشْرطة الكاسيت، بعد ذلك اقتربتْ منّي صوفي وقالت: إنّنا لا يجب أنْ نلتقي لِبعض الوقت، وسألتُها إنْ كانت ترغب في إخباري بأنّها لا تريد رؤيتي ثانيةً، وقالت لي إنّه يمكنني أنْ أفهم ما أُريد.

لمْ أكنْ أحمل سيجارةً واحدةً تعينني على تجاوز اللّحظة العصيبة. فكّرتُ أنّ انخراطي في التّدخين ببطءٍ سيجعلها تُمسك بيدي، وستصبح خطيبتي من جديد، لكنْ هكذا، من دون سيجارةٍ، أو أيّ شيءٍ، شعرتُ بأنّني عارٍ تماماً، مثل لاعب متسلل.

- «حسناً». قلت لها: «كما تشائين».

خرجتُ من محلّ الأسطوانات بأذنين مُتّقدتين، وركبتين مُرتعدتين. نزلتُ إلى محطّة المترو في شارع أوهلاند، وظللتُ طوال ساعة تقريباً على رصيف المحطّة بينما أشاهد وصول ومغادرة القطار القصير لخطّ ميدان فيتنبرج.

تلخيصاً: كنتُ قد انهزمت بأهداف كثيرة. كنتُ بعيداً عن بلدي. لم تكنْ صوفي راغبةً في رؤيتي ثانيةً. هناك شخصٌ يبحث عنّي ليُصفّي حسابه معي، وقد أرسلت ألمانيّاً إلى المستشفى. يوجد من يطلقون على أنفسهم رصاصةً لأسبابٍ أقلّ من هذه بكثيرٍ. عوضاً عن إلقاء نفسي تحت عجلات القطار، ذهبتُ لترتيب الصّناديق في مَتْجر ألبريخت، وفعلتُ هذا برغبة شديدة لدرجة أنّني تخلّصتُ من القمامة كلّها بعد ساعتين، وعدتُ إلى البيت.

هل سمعتم مقولة «أخيراً في بيتي الدّافئ». حسناً. يجب أنْ يحصل الشّخص الذي اخترع هذه المقولة على جائزة نوبل للكَذِب.

بينما كنت أفتح الباب، قالت لي أمّي: إنّ شخصاً ما ظلّ يطلبني في الهاتف طوال اليوم. كان يتحدّث الألمانيّة، ويسأل عن الفتى التشيليّ. أمّي تعدُّ بطلة العالم في الحدْس. سألتني عن الأمر الذي تورّطتُ به، لم أردّ عليها بأيّة كلمة، وذهبتُ للجلوس بجوار الهاتف، وظللتُ أنظر كأنّما سيخرج منه فجأةً كلبٌ نابح.

بعد خمس دقائق رنَّ الجرَس. كنت أودُّ ألّا أمتلك أُذنين في تلك اللّحظة. الشّيء الوحيد الذي خطر في بالي أنْ أتركه يرنّ. أسندتُ جبهتي إلى قبضتي وانتظرتُ أنْ يصمت، حينئذٍ جاءني صوت أمّي العَذْب: «الهااااتف». رفعت السّمّاعة، ووضعتها بعيداً عن أذني بينما أحبس أنفاسي.

- «آلو». قال الشّخص.

لم أقُلْ كلمةً واحدةً. لا بُدَّ من أنّني كنت خائفاً من خروج الشّخص من الهاتف إنْ قلتُ أيّ شيءٍ.

- «آلو؟». قال: «هل أنت التشيليّ؟»

وضعتُ السّمّاعة بنعومة، وبعدما تركتُها وضعتُ يَدي فوقها، كأنّما أريد محْوَ بَصماتي. استدرتُ إلى المطبخ برغبةٍ في البكاء في مريول أمّي كما كنت أفعل في أثناء طفولتي في سنتياغو. ضغطت على ساقيّ بقوّةٍ؛ لأنّني كنت أوشك على التّبوّل على نفسي، وحينئذ «رينغ-رينغ» مرّةً أخرى. لمْ أنتبه إلى كمّيّة اللّعاب المُتراكمة في فمي.

رفعتُ السّمّاعة بسرعةٍ، وقرّبتُها من أُذني. الآنَ كنتُ أخشى أنْ تأتي أمّي وتسمع الحوار، وكما يفعل المرءُ كلّما اشترى ورقة يانصيبٍ، فزت بالجائزة الكبرى، وهذا ما حدث تماماً: وقفتْ أمّي في حَلْق الباب بينما تُجفّف طبقاً، وكانت منتبهةً للغاية إلى الحوار.

- «آلو». قال الصّوت. كان صارخاً إلى حدّ ما، وهو ما جعلني أكثر توتّراً. غطّيتُ السّمّاعة، وقلت لأمّي: «إنّه صديقٌ».

- آلو. هل أنت التشيليّ؟

- «نعم». قلتُ بينما أسْعُل: «إنّه أنا».

كانت أمّي ما زالت تفرك الطّبق بالفوطة. أعتقد أنّني لمْ أرَ في حياتي طبقاً أكثر جفافاً من هذا.

- لقد طلبتك قبْل قليلٍ وأنهَيتَ المُكالمة. أنت تعتقد أنّك شديدُ الذّكاء، أليس كذلك؟

- «لا». قلت.

- أنت تعرف من أكون، أليس كذلك؟

- «لا توجد لديَّ أدنى فكرة». قلت له.

- بالفعل؟

- «عمَّ تتحدثان؟». سألتْ أمّي التي ما زالت تجتهد في تجفيف الطّبق.

- «بالألمانيّة». قلتُ لها.

- لقد أدركتُ أنّك تتحدّث بالألمانيّة، لكنْ ماذا يقول؟

- «لحظةً واحدةً». قلتُ للشّخص الذي يكلِّمني. غطّيتُ السَّمّاعة: «من فضلكِ يا ماما، اتركيني أتكلَّم، هل هذا ممكن؟».

نظرتْ إليّ أمّي بتلك النّظرة الصّاعقة للأمّهات الحنونات، ودخلت الطّرقة.

- «آلو». قلتُ.

- آلو. ماذا يحدث عندك؟

- لا شيء.

- «حسناً». قال: «أنا مايكل».

كان عليّ أنْ أتظاهر:

- مايكل ماذا؟

- اهدأ. لا أهميّة لهذا. أنا أخو هانز.

- لا أعرف أيّ شخصٍ بهذا الاسم.

- حسناً. لمْ أتّصلْ لأتناقش بشأن مَن تعرف، ومَن لا تعرف. أخي في المستشفى.

ظللت أتنفّس، ولمْ يخطر في بالي قول أيّ شيءٍ.

- «هل عرفتَ أنّه في المستشفى؟». نظرتُ في اتّجاه الطّرقة خشْية ظهور أمّي. كان قلبي لا ينبضُ، إنّما يرْكُل كأنّما أفتقدُ إلى الهواء.

- «حالته خَطِرة». قال: «خَطِرة». كرَّر ذلك.

أردتُ أنْ أقول: «فعلاً؟» لكنّ الأصوات لمْ تصل إلى حَنْجرتي.

- «نعم». قلتُ.

- وأتّصلُ لأقول لك: إنّني سأفعل بك ما فعلته بهانز ذاته.

- «نعم». قلتُ.

نسيت اللّغة الألمانيّة كلّها فجأةً. هكذا كنتُ في البداية عندما لمْ أكن أفهم أيّ شيءٍ. كنتُ أُكرِّر: «نعم، نعم»، ويرتسم البَلَهُ على وجهي.

- عندما أراك، سأقطع رأسك.

- «نعم». قلتُ.

- وإنْ مات هانز في المستشفى، سأقتلك قبْل أن تُمسك بك الشّرطة، هل تفهم؟

- نعم.

- هل فهمت جيّداً؟

- نعم.

- ما إنْ تخرج من بيتك، سأمسك بك وأمزّقك. هل سمعت يا تشيلي؟

- نعم.

- إنْ كنتَ شُجاعاً أدعوك إلى العِراك هذا المساء. نلتقي في محطّة قطار «بيلفوي»، في الخامسة تماماً.

نظرتُ إلى السّاعة.

- «لا». قلتُ.

- هل أنت خائف؟

كانت السّماعة مُبلّلةً بالعَرق، كأنّني من الشّوكولاتة وأذوب شيئاً فشيئاً. ظلَّ مايكل صامتاً، ولمْ أكنْ أسمع سوى تنفّسه. فجأةً، خطر في بالي جذْب أطراف الحديث معه. خطر في بالي أنْ أكون ودوداً، وأسأله عن أخيه الصَّغير.

- «في أيّ مستشفى يوجد أخوك؟». سألته.

- في المستشفى ذاتها التي ستذهب إليها يا أبْلَه.

- لا يا مايكل. أنا جادٌّ.

- هل تريد أن تحمل له زهوراً وشوكولاتة؟

- لا. كنت أريد أنْ أعرف فقط.

- حالته خَطِرة، لا يمكنه الكلام. يجب أنْ تصفّي حسابك معي الآن.

في إحدى تلك اللّحظات، بَدا لي أنّني أستيقظ من حُلمٍ، كأنّ صنبور ماءٍ مُثلّج ينفتح فوق رأسي؛ من أين أتى مايكل برقم تليفوني؟ لا بُدّ من أنّني قد رمشت بضْع مرّاتٍ، وبفضل المساعدة الرّائعة لمنطق هوميروس وصلتُ إلى ما مفاده أنّ الشّخص الوحيد الذي يمكن أنْ يعطيه رقم الحظّ السّعيد هو حبيبتي المخلصة صوفي براون. بالإضافة إلى التّرّهات المعهودة، في تلك اللّحظة لمْ أكنْ أفكّر سوى في الطّريقة التي حصل بها مايكل هذا على الرّقم من صوفي؛ هل قام بضربها، كما يبدو أنّها طريقته أم بقُبلٍ، وعناقاتٍ، ولمسةٍ هنا، وأُخرى هناك؟

تملَّك منّي حُزنٌ أكثر عُمقاً وطولاً من السِّكّين. أوّل امرأةٍ في حياتي، والخيانة الأولى. بخبراتٍ مثل هذه، عوضاً عن ترديد أنْجح الأغاني، يجب أنْ أقوم بكتابتها. خطر في بالي ردّ فعلٍ

الشّاعر والمفكّر المشهور أودو يورجينز إنْ كتبتُ له قصيدةً، حيث لا تقوم الفتاة بالتّخلّي عن حبيبها فقط، إنّما تعطي رقم هاتفه لقاتلٍ أيضاً، لكي يعثر عليه، ويقطع رأسه. الآنَ أتخيّل مايكل كشخصٍ مناقضٍ لي تماماً، لا بُدّ من أنّه قد دخل بيت صوفي، ورفع فستانها، وشغّل التّلفاز، وفي وسْط المشْهد أعطته رقمي. لا بُدّ من أنّ ما حصلت عليه كلّه بعد شهورٍ قد أصبح متعةً لمايكلٍ خلال دقيقةٍ واحدةٍ. لابُدَّ أيضاً من أنّه طويلٌ، وسيمٌ، أنيقُ الملْبَس، وبقبضةٍ حديديّةٍ.

ربّما تعتقدون أنّني فكّرتُ في لقاء صوفي، وقطْع رأسِها، لأنّها خائنةٌ، أليس كذلك؟ لا. لقد ظللت بجوار الهاتف بينما أفكّر في أحزاني، متقوقعاً داخل أحزاني.

- حسناً يا تشيلّي. ستأتي أم لا؟

- «لا». قلتُ له.

- هكذا إذاً. أينما أمسكتُ بك....

-... ستقطع عُنقي. لقدَ قلتَ هذا من قبل.

- إذاً...

- أنت وكم شخصاً آخر؟

وضعتُ السّمّاعة بقوّةٍ فوق الهاتف، كأنّما أريد كَسْرَ بيضة، وظللتُ في انتظار الرَّكَلات التي ستصل إليّ عبْر السِّلك. لا أعرف لماذا عبَّرتُ عن شجاعةٍ كبيرةٍ في الكلمات الأخيرة، لكنّني كنتُ أتنفّس مُهتاجاً، كأنّما انتهيت من العِراك، أو من لَعب كُرة القدم.

أمضيتُ سائر اليوم في التّلصُّص عبْر النّافذة. أحياناً كنت أتابع طيران البَطّ والحَمام فوق النَّهر، من دون رغبةٍ في مشاهدة التّلفاز، أو قراءة قصصٍ، بعد ذلك شغَّلت الرّاديو، ورسمتُ بضْعَ لوحاتٍ لصوفي بينما أسْتمع إلى الأغاني.

عندما جاء أبي أطْفأ الموسيقا، وأخذ يتّصل بالرّفاق؛ لأنَّ اليوم التّالي كان الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. كان غاضباً؛ لأنَّ التشيليّين لمْ يتّفقوا، وكانت هناك مسيرتان ضدّ المجلس العسكريّ. لمْ يلفتْ هذا انتباهي؛ لأنّني أعرف أنّنا جميعاً

تشيليّون وأصدقاء جيّدون، لكن كلّما التقينا نأخذ في النّقاش طوال الّليل. ذهبتُ لتناول الحَساء، لكنْ قبْل ذلك مزّقتُ صورة صوفي، ورميتها في سلّة القمامة.

لمْ يكن بإمكاني النّوم، كنت أنظر إلى انعكاسات النّهر في السَّقف، وكنت أريدُ تشكيل رسومات من الحركات، لكنّني لمْ أفلح في هذا. لأوّل مرّةٍ أدرك أهمّيّة النّوم، الشّيء الوحيد الذي كنت أرغب به هو مجيء سحابةٍ سوداء من النّوم، وأنْ تحملني بعيداً عن البيت، وعن المدينة.

عندما أمْكنني النّوم قليلاً، كان الّليل ينسحب، وبعد نصف ساعةٍ رنَّ المنبّه، وظهرت أمّي بالرّوب لكي تُعدَّ لنا الإفطار.

كنتُ أبْدو كالأسطوانة المشروخة، أوّل شيءٍ فعلته كان الذّهاب عارياً حتّى النّافذة، والنّظر في اتّجاه النّاصيتين. خطر لي أنْ أقول لأمّي إنّني متوعِّك، إنّني لمْ أنَمْ طوال الّليل؛ لأنّ معدتي تؤلمني، واضطّررت إلى الذّهاب مرّاتٍ عديدة إلى الحمّام. قلت لها هذا فَوْر دخولي المطبخ، وصرخ بي أبي طالباً منّي الذّهاب للاغتسال، وبعد ذلك إلى المدرسة، وألْقى عليّ خطبةً بديعةً وطنيّةً حَول مثالب السّقوط مريضاً يوم الحادي

عشر من أيلول/سبتمبر. اتَّبعني حتّى الحمّام، بينما يقول إنّني أقعُ ميتاً بسبب ألمٍ بسيط، بينما يجب أنْ أفكّر في حال الأطفال في تشيلي، حيث كان آباؤهم في السّجون، ويتضوّرون جوعاً.

حاولتُ إغلاق الباب، وتصفيف شَعري بهدوءٍ، لكنّ بابا وقف بجواري، وقال: إنّني يجب أنْ أذهب إلى المسيرة، وأنْ أهتِف مثل الجميع، وألّا أنسى مُطلقاً لماذا كنّا نعيش هنا. أكثر شيءٍ يضايقني في أبي أنّه دائماً ما يُكرِّر أشياء أعرفها عن ظَهْر قلب. بعد أنْ فكّكتُ عُقد شَعري بالفرشاة، أدخلتُ يديَّ في الكتلة الكثيفة وبعثرتُها. أعتقد أنّ الأشخاص الذين يُصفّفون شُعورهم سُخفاء.

دائماً ما يحمل أخي الصّغير شطائر إلى المدرسة، وأمّي تلفّها في فوطةٍ صغيرةٍ خضراء، لكنّه مهووسٌ بالطّعام، ولهذا ما إنْ يَصل إلى النّاصية حتّى يفضّ الشطائر ويُعمِل فيه أسنانه، بعد ذلك، في الفُسحة يحصل على شطائر من الزّملاء، يظلّ ينظر إليهم بنظرة شخصٍ سيفقد وَعْيَه حتّى يعطوه النّصف.

ما إنْ قام أخي بفضّ الشطيرة، حتّى شعرتُ بأنّ هناك من يتبعنا، كأنَّ ظلّي أصبح يمتلك ثقلاً فجأةً، كأنَّ السَّماء تَسْحق

ظَهْري فجأةً.

- «هيّا بنا نسيرُ أسْرع قليلاً». قلتُ لدانييل بينما أدفع كوعَه.

- لماذا؟ ما زال الوقت مُبكّراً.

- لا تنظر إلى الخلْف، لكنْ يوجد من يَتبعنا.

قلتُ هذا، وأمْسكتُ بقفاه، لأنّه دائماً ما يفعل عكس ما يطلبه منه المرء، بعد ذلك اضطّررت إلى الإمساك بقَفاه مرّةً أُخرى، لأنّه أخذ يجري. هكذا سرت به مكبوحاً لمسافة نصف مربّعٍ سكنيٍّ.

- «أطْلقني». قال لي: «هكذا لا يمكنني ابتلاع الشطيرة».

- سأُطلقك، لكنْ إنْ نظرتَ إلى الخلْف، أو جريت، سأهشّم رأسك بضربةٍ من الحقيبة.

- لماذا يلاحقوننا؟

- هناك شخصٌ ما يريد أنْ يضربني.

- لماذا؟

- أُصْمت.

- لكنْ لماذا؟

- لا يمكنني أنْ أخبرك.

- هل سرقت منه شيئاً؟

حينئذٍ اضطّررت إلى ضربه على رأسه ضربةً خفيفةً.

- أقول لك اصمت!

كنّا نسير بسرعةٍ كبيرةٍ، وأنا مُنكمشٌ على نفسي، كأنّما الجوّ باردٌ، لكنّ اليوم كان لطيفاً. لوْ لمْ أكن قد وقعت في مشكلاتٍ، بالتّأكيد كنتُ سأسير ببطءٍ بينما أنظر إلى الطّيور وأَصْفِر.

- لماذا لا تُبلغ الشّرطة؟

- لا يمكنني.

- لكنْ لماذا؟

- أعْطني قطعةً من الشطيرة.

انتزعتُ قطعةً، وأخذتُ أمْضغها لكي أفعل شيئاً ما. لمْ يخطر في بالي أنْ أمْضَغها. لم أكنْ سأستطيع. كان عُنقي يبدو من الإسْمنت، وعلى العكس، كنت أشعر بأنّ ساقيَّ سَلستا الحركة.

- «هل تريد أنْ أنظر إلى الخلْف خلسةً؟». قال داني.

- الآنَ، عندما نعبُر، تظاهر أنّك تنظر لترى إنْ كانت هناك سيّارةٌ قادمةٌ، وركِّز جيّداً، هل فهمت؟

- نعم.

- تأكّد من عددهم.

- حاضر.

- لِنَعبُر الآن.

ضغطتُ على كوعه بقوّةٍ، وقُدْته عبْر الشّارع بين السّيّارات المتوقّفة في الإشارة. لمْ أرغَبْ في رؤية كيف ينظر.

- هل نظرت؟

- نعم.

- كم عددهم.

- واحدٌ فقط.

- ما هي هيئته؟

- ضَخْم.

- بأيّ حَجمٍ؟

- لا أعرف. ضَخْم.

- لا تكنْ سخيفاً. هل هو ضخمٌ مثل بابا؟

- لا، ليس إلى هذا الحدّ.

- مثلي؟

- أكبر منك. لابُدّ من أنّ لديه خطيبة.

- هل يبدو في السّابعة عشرة؟

- ربّما.

لفظتُ الخُبز الممضوغ في فمي، وألْقيته في سلّة القمامة كمواطنٍ مُحترمٍ ومتحضّرٍ.

- هل يريد ضربك؟

- إنْ أمسك بي سيضربني. ماذا يرتدي؟

- سُترةً جلديّةً، وقبّعةً تغطّي الأُذنين.

- أنظر بحذرٍ، من دون أنْ تلفت الانتباه، وأخبرني إنْ كان قريباً أم بعيداً.

حكَّ داني رأسه، ونظر إلى الخلْف كأنّ هناك طائرةً ورقيّةً. أخي حَذِرٌ للغاية.

- ماذا؟

- كما كان.

- في مكانه ذاته؟

- في مكانه ذاته. لقد نَجَوت. أوْشكنا على الوصول إلى المدرسة.

خطر في بالي أنّ الأسوأ من ضَرْبي هو ذهابه ليتحدّث إلى مدير المدرسة. كنت أتخيّل نفسي في مؤسّسةٍ إصلاحيّةٍ بينما آخُذ حمّامات شمسٍ مرتدياً ملابس مُخطّطةً.

عبرْنا فناء المدرسة، ومن دون تحيّة أيّ شخصٍ اتّجهتُ مباشرةً

إلى قاعات الطّابق الثّاني، ونظرتُ عبْر النّافذة بينما أطلٌّ بعينٍ واحدةٍ من إطارها.

وحينئذ رأيته بوضوحٍ. كانت يداه داخل جيوبه، بينما يقف أمام البوّابة، وينظر إلى الطَلَبة في أثناء دخولهم. لمْ يكنْ أكبر منّي بكثيرٍ، لكنْ ربّما كان يبدو قويّاً للغاية بسبب السُّترة الجلديّة. نزلتُ إلى قاعتي، ولمْ يكنْ بإمكاني التّركيز في أيّ شيءٍ طوال الصَّباح. في السّاعة الأخيرة، اقتربتُ من بيتر شولتز، وقلت له: إنّني سأعيره العددَ الأخيرَ من مجلّة «أستريكس» المُصوّرة إنْ رافقني إلى البيت. لمْ أخترْ بيتر لأنّه ودودٌ لطيفٌ، إنّما لأنّهم يُطلقون عليه في الفصل لقب «الكيلومتر»، يبلغ طوله عامود إنارةٍ تقريباً، وكان عريضاً مثل برميل نَبيذٍ.

أعتقد أنّ خوفي كان مُرتبطاً بالهاتف. ما إنْ وصلتُ حتّى رنَّ الجَرس. كان يبدو أنّ مايكل يتّبع خطواتي بمقياسٍ للوقت. مع الأسف، لمْ أكنْ أستطيع أنْ أريه بيتر شولتز عبر الهاتف.

- التشيلّي؟

- نعم.

- كيف حالك؟

-بخير، شكراً.

لابُدّ من أنّكم قد لَحظتم أنّه حوارٌ ودودٌ ومهذّبٌ إلى أقصى درجةٍ. ربّما سيدعوني الآن لتناول الشّاي مع البسكويت.

- «وأنت؟». سألته.

- بخير أيضاً. حسنٌ. أنا سعيدٌ لأنّني سأقطع رأسك، سأتركك مشلولاً بركلاتي، وسأضع أصابعي في عينيك.

- «هذا صعبٌ». قلتُ له.

دائماً ما يحدث لي هذا. لساني أسرع من تفكيري.

- ألا تصدّقني؟ سأمزّقك إرباً.

- آه، هكذا؟ أنت وكم شخصاً آخر؟

في تلك اللّحظة لمْ أكنْ أستطيع الإمْساك بالهاتف بسبب ارْتعاشي، لكنْ لابُدّ من أنّ الصّمت الذي أحدثته عبارتي الأخيرة قدْ وصل إلى الطّرف الآخر.

- «آلو». قلتُ له.

- اسْمع أيّها التشيليّ، سأمرُّ لاصطحابك من أمام باب بيتك في الخامسة مساءً، لنذهب للعِراك. سنذهب للعِراك رجلاً لرجُلٍ.

- «لا يمكنني اليوم». - قلت له.

- غداً إذاً. غداً في الخامسة.

- كما تريد.

- غداً في الخامسة، وبمفردك. هل سمعت؟

- «أنت أيضاً». قلت له، وأنْهيت المُكالمة.

لا أعرف إنْ كنتُ قد أخبرتكم أنّني خبيرٌ في مراكمة الأشياء، قد يمرّ عامٌ من دون أنْ يحدث لي أيّ شيءٍ، وفجأةً

يقع كلّ شيءٍ في اليوم ذاته، يوم الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر عُقِدت فعاليّةً هائلةً في كريوتسبيرج، وقُمنا -نحن التشيليّين- بتعليم الألمان الهُتاف بالشّعارات التي كنّا نستخدمها في تشيلي، وهُم يفعلون هذا على نحوٍ رائعٍ، تعلّموا «الشّعب المُتّحِد لن يهزم أبداً»، «التّحالف الشّعبيّ (يو بي) إلى الأمام»، «الرّفيق سلفادور ألليندي حاضر». يبدو أنّهم يعرفون شعاراً واحداً فقط، الذي يقول: «أُمميّةٌ بروليتاريّةٌ».

كان ذلك اليوم بالغَ الخصوصيّة لعائلتي، لأنّ أبي صعد المنصّة في ميدان هيرمان لإلقاء خُطبةٍ. وضعوا معه مُترجمةً، كانت الأنثى لطيفةً للغاية. لم يكن أبي قادراً على قول ثلاث كلماتٍ عن تشيلي من دون تأثُّرٍ، وهكذا كان يصرخ بأعلى صوته بعد دقيقتين، وكانت دموعه تتساقط، وتصل حتّى جيوبه بعد خمس دقائق. لِحُسن الحظّ كان يترك فراغاتٍ لكي تفهم المُترجمة، وهكذا كان يمكنه أنْ يتنفّس ويمسح أنفه. ألقى أبي خُطبةً رائعةً، أعتقد أنّه متخصّصٌ في التّواصل مع النّاس. تذكّروا اسم أبي، سيصبح نائباً في البرلمان في أيّ يومٍ.

قال أبي: إنّ بينوتشيه كان على المِشْواة، وإنّه يشكر التّضامنَ الدّوليَّ، وإنّ تشيلي تمتلئ بالأبطال. تحدَّث عن الرّفاق السُّجناء

الذين يتعرّضون إلى التّعذيب، وانْتهى بقبضته إلى أعلى بينما يصيح: «سننتصر»، وحَظي بالتّصفيق خلال نصف ساعة تقريباً، واتّجهت إلى المنصّة لتهنئته، ومرّت بصعوبة شديدة لكثرة الحاضرين، حينئذ انطلق هتاف: «أمميّةً بروليتاريّةً»، والألمانيّ الذي كان يُقدَّمُ الفعاليّة جذب الميكروفون، وقال: إنّ هتاف الأمميّة البروليتاريّة أمرٌ جيّدٌ للغاية، لكنْ لِنَرَ الآن إنْ كان الحاضرون سيعبّرون عنه في صناديق التّبرّعات التي بدأت تدور عليهم.

السّيّد أورس يبذل قصارى جهده دائماً للحصول على تبرّعات للمقاومة، وبين مزحةٍ وأُخرى يجمع مبلغاً كبيراً. عندما وصلتُ إلى أبي مَددتُ له يَدي، وقلتُ له: «كُنت رائعاً يا أبي». داعب شَعري، وقال لأصدقائه: «هذا هو ابني»، وأعطوني صندوقاً للتّبرّعات، وبينما كانت مجموعة «ليبراثيون أمريكانا» تغنّي أغاني فرقة «كيلابايون»، أخذتُ أنْحشرُ بين النّاس بينما أقول لهم: «لتضعوا الكثير يا رفاق». وبينما كنت أقوم بهذا، عندما... أراهن أنّكم لا تستطيعون تخمين من كان حاضراً بشَحمه ولَحمه وسْط البروليتارية الأمميّة كلّها.

لا، لقد أخطأتم هذه المرّة إذاً. لمْ يكنْ مايكل. أيُّها الجمهور

المُحترم، لَمْ يكن هذا الشّخص سوى إيديث كرامير، زميلتِي في الفصل، وكانت ترتدي بِنطالَ جينزٍ ضيّقاً يُظهر مَفاتنها، بشَعرها المتموّج المتّقد تحت المصابيح، ويداها داخل جيوب السُّترة البحريّة التي توجد جيوبها في الأعلى.

وظللتُ جامداً بصندوق التّبرّعات في يَدي، لأنّ طلبَ المال من أجل تشيلي من زملاء المدرسة لَمْ يخطر في بالي من قبْل، خاصّةً طلبه من إيديث كرامر (ذات الشَّعر المتموّج) كما يُطلق عليها الأصدقاء، التي كانت تكتب نصوصاً حزينةً للغاية عن الخريف في أيلول/سبتمبر، والقصائد المبتهجة عن الرّبيع في نيسان/أبريل.

دائماً ما رغبتُ في وضْع يَدي بين خصلات شَعرها، ولمْسِها واحدةً واحدةً، ولمْسِها كلّها مجتمعةً أيضاً، لكنّ فتيات الفصل كنَّ يذْهَبْنَ إلى أركان الفناء في أثناء الفُسحة، ويمْضين الوقت في الضَّحك مثل الفئران. كانت وجوهُ الكثيرات ممتلئةً ببثورٍ بحَجم النّجوم، وكنَّ يمْضين عشر ساعاتٍ في الحمّام بينما يملأْن وجوههنّ بكريماتٍ سحريّةٍ.

كنَّ يضَعْنَ كريماتٍ في أثناء الحِصص أيضاً، وكان هذا

يوتّرني للغاية. ويُعاملْنَ فتيان الفصل بأقسى درجات عدم الاكتراث. كانت كلٌّ منهنّ تعتقد أنّها أميرةً، وأنّ قَدَرها هو فتيان السّنوات الأعلى، وكنّ يغمزْن لهُم على نحوٍ فاضحٍ. عندما يقترب أحدنا للكلام معهنّ، كنّ يتظاهرْنَ بالتّثاؤب بعد ثاني جُملة بدرجة تجعل المرء يرغب في أنْ تنشقّ الأرضُ وتبتلعه، ولمْ يكنّ ينظرْنَ إلى عينيّ المرء مُباشرةً على الإطلاق؛ لأنّهنّ كنّ يضَعْنَ اهتمامهنّ في انتظار فتىً كبيرٍ ولم يكن هؤلاء ينعدمون مُطلقاً في الأماكن القريبة. محاولة عقْد صداقةٍ معهنّ تشبه بدْء مباراة شطرنجٍ بالتّخلّي عن الوزير.

ولهذا كنّا نُفضّل الذّهاب لرَكْل كُرة القدم، أو لإعداد أوراق اليانصيب. كان اليانصيب يُصيبنا بالجنون. كنّا جميعاً في الفصل نرغب في أنْ نكون مليونيرات. هكذا ما إنْ رأيت «ذات الشّعر المتموّج» حتّى أُصبتُ بالخرس، كأنّما فَمي مُغطّىً بحزام عِفّةٍ.

- «أهلاً». قالت لي.

- «أهلاً». قلت لها.

كما يمكنكم الملاحظة، كان حواراً فلسفيّاً عميقاً للغاية.

- كيف حالك؟

- بخير. وأنت؟

- بخير.

- هذا أمرٌ طيّبٌ.

كنّا نتبادل النّظرات خلال جزءٍ ضئيلٍ من الثّانية ثمّ ننظر إلى الأرض، وبعد ذلك ينظر كلٌّ منّا حوله.

- «يوجد الكثيرون، أليس كذلك؟». قالتْ.

- الكثيرون.

نظرتْ إلى صندوق التّبرّعات.

- هل تجمع المال؟

نظرتُ أيضاً إلى يَدي، وتظاهرتُ بعدم الاكتراث.

- «آه، نعم». قلت: «أشارك على نحوٍ بسيطٍ».

بيضع لَمساتٍ من يَدها ضَبطتْ خصلات شَعرها المتموّج، وابتسمت ابتسامةً خفيفةً، بعد ذلك جذبت رجُلاً كان بجوارها من يَده، وكان شَعره ممتلئاً بالتّموّجات أيضاً، وأشارت إليّ بإصبعها.

- «هذا هو لوتشو». قالت: «الفتى التشيليّ في مدرستي».

مدَّ الرّجُلُ يَده الضَّخمة، وضغط على يَدي ضغطةً قويّةً بينما يُأرجِحُها.

- «أنا سعيدٌ بلقائك يا رفيق». قال.

- «بابا!». قالت إيديث، وأشارت بعد ذلك إلى صندوق التّبرّعات بالإصبع نفسها: «لوتشو يجمع المال».

وضَع السّيّد كرامر يَده في جَيب السُّترة، وأخرج عُملةً سميكةً فئة الخمسة فرانكات، وضعها في شقّ الصُّندوق، مرَّ أمام ابنته،

وأمسك بكتفيّ بينما كان ينظر إليّ بجدّيّةٍ.

- كيف تشعر في برلين؟

- بخيرٍ يا سيّدي.

- ألا توجد أيّة مشكلةٍ؟

- لا يا سيّدي.

- هذا أمرٌ طيّبٌ إذاً.

حينئذٍ انتهت الفعاليّة، وقامت فرقة «ليبراثيون أمريكانا» بغناء «سننتصر» بناءً على طلب الجمهور. أطلق السّيّد كرامر كفّي وغنّى الاستهلال، لكنّه اكْتفى بالجزء الذي يقول «سننتصر»، وبعد ذلك نظر نحوي لكي أغنّي له البقيّة، لكنّ هذا كان مستحيلاً، واضطّررت إلى رفع كتفيّ لأشير إلى هذا، لأنّني لمْ أستطع حِفظ كلماتها مُطلقاً، على أنّ هذا يبدو غير قابلٍ للتّصديق.

في الحقيقة، لا أفهم الكلمات جيّداً، على سبيل المثال: لا أعرف ماذا تعني بوتقة التّاريخ، أو من هو الجنديّ الشّجاع. شعرتُ بالخَجل، وعَزمتُ على سؤال بابا عن المعنى، وحفظها جيّداً من أجل المسيرة التّالية.

بعد ذلك سأل السّيّد كرامر ابنته إيديث لماذا لا تدعوني لتناول العشاء في اليوم التّالي في بيتهم. أنا لا أفهم كلمات أنشودة «سننتصر»، ولا أفهم النّساء أيضاً. ما إنْ سمعت ما قال أبوها حتّى أطلقتْ صيحةً، وقفزتْ بهْجةً، كأنّني خطيبها، وإنْ لمْ يكن هذا كافياً أيّها السّيّدات والسّادة، طبعتْ قبلةً على وجْنتي، لكنّها كانت قُبلةً بالشّفتين مضمومتين، لدرجة أنّ وجهي قد اصطبغ بلونٍ أكثر زهاءً من البلوفر الذي أرتديه.

- «غداً في الثّامنة». قالت لي، ورحلت متأبّطةً ذارع أبيها، بينما تودِّعني مُلوِّحَةً بيدها كأنّها تركب قطاراً.

في تلك اللّيلة جاء الكثيرون إلى بيتي، وألقوا بالمال كلّه فوق مائدة الطّعام. السّيّد أورس، وأليخاندرا، وخورخي، أخذوا يفصلون العملات الكبيرة في مجموعات. كما كانت هناك أوراقٌ ماليّةٌ كثيرةٌ للغاية. جعلني السّيّد أورس أضَع العملات فئة

المارك الواحد في أكوامٍ من عشرة، وجعل أخي الصَّغير يجمع العملات الصَّغيرة كلّها فئة العشرة بفينينج.

من حينٍ إلى آخر كنت أنظرُ بطرف عيني إلى دانييل، فمن أجل شراء المُضغة والشّوكولاتة كان قادراً على أخذ مال المقاومة.

كان الجميع مُتهيّجين، وبدؤوا يشربون النّبيذ، وأرسلوا لشراء دجاج من «فينيرفالد»، والمزيد من النّبيذ، وفي تلك اللّيلة لمْ يتناقشْ أيّ شخصٍ، إنّما ضحكوا كثيراً، وطلب أبي من أمّي أن تُخرج من الدّولاب زجاجات النّبيذ التي كانت مُخصّصةً للأسبوعِ المُقبل، وظلّوا يشربون حتّى الثّالثة صباحاً، ولمْ تنفدْ بهجتهم، وقالوا: إنّهم سيمضون الثّامن عشر من أيلول/سبتمبرِ من العام التّالي في تشيلي؛ لأنّه العيد الوطنيّ، حيث تُنصب خيامٌ في الحدائق والمتنزّهات، ونشربُ عصائر الفواكه المُخمَّرة، التي لا يعرفونها هنا، ونأكل فطائر اللّحم، التي لا يعرفونها هنا أيضاً. دائماً ما اندهشت لعدم وجود مثل هذه الأشياء في ألمانيا، مع أنّه بلدٌ مُتقدّمٌ للغاية.

بينما كان اللّيل يتقدَّم، كنتُ أشْعر بالحُزن، كأنّما كنتُ

أريد تثبيت هذه اللّيلة الجميلة في بيتي، وأنْ تستمرّ طوال الحياة. الأصدقاء: أبي يُغنّي بينما تيتو يعزف على الغيتار، وأمّي وأليخاندرا اللّتان شَربتا كثيراً، وكانتا تضحكان مثل طالبات المدارس بينما تجلسان على حافّة الأريكة، والسّيّد أورس نائمٌ فوق المائدة، وأخي الصَّغير نائمٌ أيضاً على السّجّادة بجوار القطّ.

لماذا لا تبقى الأشياء التي يحبّها المرْءُ معه إلى الأبد؟ أحياناً لا أؤمن بالرّبّ، لأنّني أرى أنّ السَّعادة تشقّ على النّاس كثيراً في هذا العالم، والرّبّ الذي يمكنه أنْ يصوغ العالم كما يريد، لمْ يجْعله سعيداً، لأنّ الرّبّ ليس بالغَ القدرة كما يقول الدّين، هذا إنْ كان موجوداً. كثيراً ما أفكّر في هذه الأمور مؤخّراً، وأودُّ الكلام مع هوميروس عن هذا كلّه، لكي يُفكّر بمنطق أرسطو كلّه، ويوضح لي الأمور التي تخطر على رأسي، على سبيل المثال: لا أفهم لماذا لمْ ينقذ الرّبُّ الرّفاق كلّهم الذين قتلهم العسكر في تشيلي؟ ذات مرّة رغبتُ في كتابة هذا كلّه للكاردينال التشيليّ لكي أسأله، لأنّني دائماً ما كنت أسمع أنّ الكاردينال إنسانٌ طيّبٌ، لكنْ عندما حكيتُ هذا لأبي طلب إليّ التّوقّف عن الحماقات. من الواضح أنّ أبي لا يحبّ الفلسفة كثيراً.

في الثّالثة صباحاً، أدركوا أنّني كنت أفكّر في أمرٍ ما على أنغام

غيتار تيتو، ونظرتْ أمّي إلى السّاعة، وأمرتني بالذّهاب إلى الفِراش.

- «اتركيه!». قال أبي: «لنْ يحدث أيّ شيءٍ إنْ لم يذهب يوماً واحداً إلى المدرسة».

ناداني لكي أجلس إلى جواره، وظلّ يتحدّث مع الأصدقاء، ويشرب النّبيذ الأحمر الإسبانيّ، وفي أثناء ذلك كان يُداعب رأسي. أحياناً يصبح أبي حنوناً للغاية معي.

بينما كنتُ أشعر بيَده الضَّخمة في شَعري فكَّرتُ في اليوم التّالي؛ أوّلاً تخيّلتُ كيف سأصل إلى بيت السّيّد كرامر، حيث ستكون أولى زياراتي إلى بيتٍ ألمانيّ. لقد رأيت أنّ العادة هنا هي حَمْلُ الزّهور، لكنْ مجرّد التّفكير في ركوب المترو بباقة زهورٍ في يَدي جعلني أشْعر بخَجلٍ لا نهائيّ. كنت أعرف جيّداً أنّ «ذات الشَّعر المتموّج» رومانسيّةٌ، وإنْ كان وجهي يصطبغ بالحُمرة الآن لمجرّد التّفكير في هذا، ماذا سيصبح لوني على باب بيت السّيّد كرامر؟

بينما كنتُ مُنشغلاً في هذه المشكلات، مَحَوتُ من الخريطة

صديقي اللّطيف مايكل بسُترته الجلديّة، لكنْ عندما رنَّ جَرسُ الهاتف فجأةً، وكانت المكالمة للسّيّد أورس، تذكّرتُ وشعرتُ بأنّ ما عشت خلال السّاعات الأخيرة كلّه كان شبيهاً بالحُلم.

متمدّداً على الفِراش، افترضتُ أنّني قد نَجَوْت؛ لأنّني لنْ أضطرّ إلى الذّهاب إلى المدرسة، وبيدي بين ساقيّ حاولتُ النّوم بينما أتذكّر نداوة القُبلة التي طبعتها إيديث على وَجْنتي في ميدان هيرمان. كنت أتساءل: كيف سيكون الشّعور بهاتين الشّفتين على فمي؟ لمْ يكنْ هناك أيّ فارقٍ بين روميو وبيني في تلك اللّيلة. لكنْ بالطّبع أمْضى روميو ليلةً واحدةً على الأقلّ مع جولييت قبْل المَوت. أعتقد أنّني سقطتُ نائماً؛ لأنّ عقلي قد انصهرَ من كثرة استعماله، بالإضافة إلى أكواب النّبيذ بين أغنيةٍ وأُخرى.

في اليوم التّالي استيقظت في الحادية عشرة والنّصف تقريباً وسْط صمتٍ أكبر من سفينة. كانوا جميعاً ينامون في هدوءٍ، باستثناء دانييل الذي كان بارعاً في الشّخير. أحياناً أضطرّ إلى النّهوض ليلاً لكي أديره حتّى يتوقّف عن الشّخير، ويمكنني النّوم. عندما يربح أبواي شيئاً من المال، أريد الحياة في شقّةٍ؛ حيث تكون لي غرفةٌ بمفردي، أمتلك فيها مشغّل أسطواناتٍ،

وأملأ الجدران بالبوسترات، كما أودُّ أيضاً شراء مجلّات؛ حيث تظهر نساءٌ، وأحتفظ بها في مكانٍ له مفتاحٌ؛ لكي لا يطّلع عليها أخي، ويصبح فاسقاً مثلي.

ما إنْ وضعتُ قدميّ على الأرضِ حتّى بدأ رأسي في العمل، بعد نصف ساعةٍ كنت قد قَصصتُ أظافري بأسناني، وكانت جبهتي ساخنةً مثل برّاد الشّاي. أعْددتُ أبطأ شطيرة في التّاريخ المعاصر، كنتُ أضع فيه الزُّبْد، وأظلّ أمرّره بالسّكّين طوال عشر دقائق، على ذلك لمْ أتناولهُ بعد هذا كلّه؛ لأنّني دخلت الحمّام لأتجمّل من أجل لقائي مع الآنسة إيديث كرامر. كان الأمر شديد الصّعوبة؛ لأنّني لمْ أكنْ أعرف ماذا أفعل بوجهي. كانت هناك بضع شُعيراتٍ متناثرةٍ، وكانت مثيرةً للضّحك أكثر منها شُعيرات في وجْهٍ فتىً كبيرٍ. كانت صوفي تقول: إنّ ابتسامتي لطيفةٌ، وكانت تقول لي أحياناً: لنَر، ابتسمْ. وكانت تفلح دائماً في جعلي أبتسم، لكنّني أدركت أنّ الفتيات يُحْبِبن أنْ يكون المرءُ ذا وجْهٍ جادٍّ صارمٍ، بالإضافة إلى هذا، إنْ ظلَّ المرءُ يبتسم طوال اليوم سيبدو أبْلهً.

وهكذا أخذتُ في غسل شَعري. أنا مقتنعٌ تماماً أنَّ الشّيء الوحيد الجذّاب هو شَعري الغزير. لا أعرف كيف أنْقذته من

مِقَصّ أمّي، التي ترغب في قصّه بشدّة. تعتقد أمّي أنَّ قَصّة الشَّعر المثاليّة للفتى هي العسكريّة. ظللتُ تحت الدّوش ما يَقرُب من السّاعة، واستغرقت ساعةً أُخرى في تجفيف شَعري. في ساعة الغداء قالت أمّي: إنّ بعض الخصلات تسقط في طبق الحساء، وقالت: إنّها ستذهب في المساء لشراء شريطٍ لرَبط الشَّعر من أحد المحالّ.

وفي حقيقة الأمر فإنّ الواقع هو الواقع، ولا يربح المرءُ من اختراع الحكايات. كانت السّاعة الثّالثة، وبعد الثّالثة ستحلّ الرّابعة، وبعد ذلك الخامسة، ومهما رغب المرءُ في إيقاف الزَّمن، فإنَّ السّاعات تمرُّ طيراناً، بالإضافة إلى هذا، منذ ساعة الغداء التصقتْ بي عبارة «في السّاعة المتَّفق عليها»، وهي جملةٌ معهودةٌ للغاية لدى رعاة البقر. أخذتُ أدور في غرفتي بينما أقول: في السّاعة المتَّفق عليها. كنت أحاول التّفكير في شيءٍ مهمٍّ؛ لكي أنسى هذه الجُملة، ولمْ أُفلح مُطلقاً.

في الرّابعة والنّصف ذهبتُ إلى مكتب أبي مُستعدّاً لإخباره بكلّ شيءٍ. ظللتُ أنظر إليه من الخلْف بينما يقوم ببعض التّمارين في كتاب تعليم الألمانيّة، وكان مُركّزاً في بضع عباراتٍ بلْهاء على شاكلة «اشترى السّيّد فيبير تذكرةً، واختار مقعداً».

حينئذ سأل أبي نفسه: «من اشترى تذكرةً؟». وردَّ على نفسه: «السّيّد فيبير اشترى تذكرةً». عنَّ لأبي أنْ ينطق الألمانيّة على نحوٍ سليم، ومن أجل هذا يجب أنْ يتظاهر كأنّ هناك حبّة بطاطس بين أسنانه. تخرج الكلمات من فمه كالأحجار المُتساقطة.

هكذا أخذتُ مُدّخراتي كلّها، ووضعتها في حذائي الأيْسر. دائماً ما كنتُ أخشى من تعرُّضي لسرقة ما أربحه في ألبريخت. لا أعرف لماذا خَطرَ في بالي الذّهاب لزيارة «ذات الشَّعر المتموّج» بينما أحمل مالاً.

من دون أنْ أعرف كيف، قبْل الخامسة بخمس دقائق نزلتُ السّلالم، وذهبت لأجلس على النّاصية تحت صندوق البريد تماماً. الشّيء الوحيد الذي خَطر لي وضْعه في جيبي كان مِشطاً، وعندما تحسّستهُ تحت السُّترة الصّفراء، فكّرْتُ أنّ حمْل مدْيةٍ من تلك التي تنفتح بضغطةٍ كان أفضل. كانت السّماء رماديّةً، ومُحمَّلةً بالسُّحب، ولابُدَّ من أنّ أفضل أصدقائي على شاطئٍ يونانيٍّ، يتقافزان من صخرةٍ إلى أُخرى. كيف وصل بي الأمر للوقوع في هذه المشكلة؟ وكما لا توجد طريقة لإيقاف السّاعة، لا يمكن إعادة الزَّمن إلى الخلْف، لكنْ تملَّكني التّفكير فيما كان سيحدث إنْ لمْ أكن قد ذهبت مع صوفي لرسم اللّافتات

في تلك اللّيلة، والأكثر من هذا، ماذا كان سيحدث إنْ لمْ أكن قد عرفت صوفي على الإطلاق؟

في تلك اللّحظة سمعتُ ضجيجاً أصابني بالفَزع. توقّف إلى جواري موتوسيكل تهزّه الانتفاضات، وكان مايكل راكباً عليه. بالسّترة الجلديّة السّوداء ذاتها، ونظّارة شمسيّة ضخمة يثبّتها شريطٌ مطّاطيٌّ على قفاه. أدار مِقبضَ المِقْوَد مرّةً تلو الأُخرى بينما تزْأر الدراجة النارية، وتصْدر عنها فرقعاتٌ، كأنّه صاروخ.

- «هل أنت التشيليّ؟»، صاح بي.

- «نعم». قلتُ بصوتٍ خفيضٍ للغاية لمْ أسمعه أنا نفسي.

- ماذا؟

- «نعم». صِحتُ.

ظلّ يُدير المِقْبَض. خطر في بالي ما سمعته في المدرسة عن الهنود عندما رأوا الغُزاة الإسبان يصلون على متون الخيول؛ حيث اعتقدوا أنّ الحيوان والإنسان كانا وحشاً واحداً.

- «لقد جئت، ها!». صاح وسْط زئير الدراجة النارية. كان ماركة هوندا سي بي 350، ويزِن مئةً وسبعين كيلوغراماً. كان دانييل يمتلك أوراق كوتشينة عليها صور ماركات موتوسيكلات مختلفة. كان لامعاً مثل الجوهرة، على الرغم من عدم وجود شُعاع شمسٍ واحدٍ: «كنت أعتقد أنّك لنْ تأتي».

- «ها نحن هنا». قلتُ.

- وهكذا فأنت الشّخص الذي أرسل أخي إلى المستشفى؟

- « كانت مصادفةً». قلتُ.

أمْسك المِقْوَد بقوّةٍ، واحتفظ بمِقْبض التّسارُع على آخره لبعض الوقت. كان بضعة صِبْيةٍ من أبناء الحيّ ينظرون إلينا من بعيدٍ.

- هل تعني أنّ ساقك كانت مرتفعةً إلى أعلى، وجاء هو ليضع خِصْيتيه هناك؟ أشعرُ برغبةٍ في الإمساك بك، وقتلك في مكانك.

نهضتُ ونفضت بنطالي. نظرتُ حَولي، وأدْركتُ عدم وجود أصدقاء، حتّى وإنْ كان لينظروا إليّ بشفقةٍ. كان صِبْية الحيّ بأفواههم فاغرة إعجاباً بالدراجة النارية.

- اسمع يا مايكل، لنْ نتشاجر. إنْ أردت سأذهب وأعتذر إلى أخيك.

اقترب بوجهه منّي، وعوى فوق عينيّ.

- هل أنت مجنون؟ هل تريد أنْ أصحبك لترى هانز في المستشفى؟ هل تريد أن يعرف أبواي والشّرطة أنّك من ضربته؟

لمْ أعرف ماذا أفعل بيديّ، أو بساقيّ. لففتُ أصابع قدميّ على النّقود، التي كنت أفكّر في إنفاقها في شراء شيءٍ ما لذات الشَّعر المتموّج.

- «أودُّ الاعتذار إليه، وألّا نتعارك». قلتُ.

أطْلق مِقْبَضَ السُّرعة، ووضع قبضته المضمومة داخل القفّاز

تحت ذقني، وهزّها كأنّما أصابتها رعشةٌ كهربائيّةٌ.

- «اسمع يا تشيلي». قال بينما يضغط على كلماته: أخي لمْ يَشِ بك لأنّه رجلٌ. هل تعرف ماذا كان سيحدث لك إنْ قال من فعل به هذا؟ سيطردونك من البلاد يا أحمق! أنت وأبوَيْك يا غبيّ! وأين ستذهبون؟ إنّكم تشبهون الغجر.

ابتلعت لتراً من اللّعاب. لأوّل مرّةٍ أشعر بأنّني لا أجد أيّ شيءٍ في العالم يمكنني الإمساك به.

- هل هذا حقيقيٌّ؟

خلع مايكل النّظّارة، وأدار مِقْبض السُّرعة.

- أين تريد العِراك؟

الآن بينما كنت أرى وجهه، ثبّتُّ نظرتي عليه، وحاولتُ أنْ أقول له لا بعينيّ.

- الآن؟

- ماذا تريد؟ أنْ أعطيك موعداً خاصّاً مثل الأطباء؟

مسحت يديّ المتعرّقتين في رُكْبتَيْ البنطال. دائماً ما تضع أمّي قطعاً جلديّةً أنيقةً فوق رُكَب البناطيل. أنا وأخي الشّخصان الوحيدان اللّذان يرتديان البناطيل بهذه القطع في برلين.

- «أين؟». سألته بينما أحاول ألّا أنْخرط في البكاء.

- اِركب، سأحملك.

- «شكراً يا مايكل». قلتُ له.

ما إنْ ركبتُ خلْفه حتّى انْطلق طائراً بالدراجة النارية التي من نوع هوندا، واضطّررت إلى إلصاق ساقيّ لكي لا أقع، لأنّني لمْ أكن أجرؤ على الإمساك بكَتفيه.

- «أمْسِكْ بكتفيّ أيّها الغبيّ». صرخ بي: إن مِتَّ هنا سأدخل في قضيّةٍ.

وضعتُ يديّ على كتفيه، وحينئذٍ أدْركتُ ظهرَ الوحشِ

الهائل. كان يبدو مصنوعاً من الإسمنت. فكّرتُ «هذا البدين سيقتلني». أوشكت على النّزول في إشارة المرور لأنطلق في الجَرْي حتّى المدرسة التي كانت قريبةً للغاية. ما منعني هو أنّ شيئاً من الكرامة ما زال متبقّياً لديّ. دائماً ما تقول أمّي: إنّ الكرامة هي الشّيء الأخير الذي يفقده المرء. الشّيء الآخر الذي تقوله أمّي دائماً: إنّ هذا فقدان الكرامة يُشعرها بالخَجل أمام الآخرين.

كنتُ راكباً «*تاكسي*» سريعاً في اتّجاه الموت. لماذا ركبت الدراجة النارية؟ لماذا ذهبت إلى الموعد في الخامسة مساءً؟ لماذا أمضيت عاماً تقريباً في برلين، ولمْ يرغب أيّ شخصٍ في ضربي؟ والآن أصبتُ شخصاً إصابةً فادحةً، وكان مايكل هذا راغباً في سَلْخي؟

انطلقت الدراجة النارية في شارع شتروم، وبعد ذلك حادَ إلى اليسار في اتّجاه ميدان يونيون، وهناك رأيت مجموعةً من أصدقائي في المدرسة بينما ينتظرون الحافلة. كانوا قد خرجوا من الجيمنازيوم. رأوني بينما أمرُّ، وحيّوني بأيديهم، وردَدت تحيّتهم بيَدي، وظلّوا ينظرون خلال وقتٍ طويلٍ إلى الدراجة النارية التي تختفي في اتّجاه «فيست هافين». بالطّبع كانوا

يعتقدون أنّني أسْعد شخصٍ في الحياة بينما أركب هوندا سي بي 350.

دخل مايكل شارع بيوسيل بجوار محطّة القطار، وسار بحذاء القضبان حتّى وصلنا إلى مكانٍ توجد فيه الكثير من القمامة، والأحجار، وهياكل السّيّارات القديمة. مجرّد رؤية هذا جعلتني أشعر بأنّني أشْبه هذا الرُّكام كلّه، والسّماء فوقنا قذرةٌ للغاية، مثل هذا الوَحْل، وهذه العُلب المعدنيّة الصّدِئة.

لمْ يكن المطرُ يتساقط، لكنّ الهواء كان مُبلّلاً. لمْ تكن هناك سُفنٌ مارّةٌ، ولم تكن الأوناش تعمل. كان الظّلام سيحلّ. رفع مايكل يَده عن مِقْبَض التّسارع لأوّل مرّةٍ، وأطفأ الدراجة النارية، التي صمتت ببضعة انفجاراتٍ صغيرةٍ، وكان أعلى صوتٍ هو ضجيجُ القطار الذي يمرُّ على تلك القضبانِ المتشابكة الممتلئة بالطّحالب. أخرج سنَّادة الدراجة النارية وتركه قائماً.

- «هنا؟». سألته.

- هنا.

نزلتُ أوّلاً، ونزل مايكل بعد ذلك، ثمَّ فَرَدَ ذراعيه، واستنشق الهواء بعُمقٍ، كأنّما نجلس على الشّاطئ. ظللتُ إلى جِوار الدراجة النارية، ويداي في جيوبي. كان منظر الدراجة النارية هوندا الجديد غريباً وسْط القمامة.

- حسناً يا تشيلي، كيف تريد العِراك؟ باللّكمات؟ بالأيدي مفتوحة؟ بالأحجار؟ أم كيفما اتّفق؟

- «اِسمع يا مايكل». قلت له بينما أُربّت على كتفه كأنّني قسٌّ: «لا أريد العِراك معك، أوّلاً: لأنّك أكبر منّي، وأقوى منّي بكثير، وثانياً: لأنّ...».

- ثانياً: لأنّك جبان.

لكَمني بازدراءٍ، وتراجعتُ إلى الخلْف قليلاً، وظللتُ أنظر إليه بكتفيّ مائلين إلى الأمام، وذراعيَ منعقدتين أمام صَدري.

- «أنا لستُ جباناً». قلت له: «لا أريد العِراك معك، لأنّني لا أرغبُ في هذا. لا أريد أنْ أضربك. المرء يتعارك عندما يكون غاضباً».

هجمَ عليّ، ودفعني بركْلة فوق يديّ المنعقدتين أمام صَدري. زلّت قدمي قليلاً، لكنّني لمْ أقع. عندما اعتدلتُ في وقفتي ظللتُ أنظر إليه بيديّ السّاقطتين إلى جواري.

- والآن، هل تشعر بالغضب؟

تظاهرتُ بالتّفكير.

- لا يا مايكل. لا. لستُ غاضباً.

مرَّ بيَده على وجهه، وخلعَ نظّارة قائدي الدراجات النارية. ظلّ يحكّ أنفه لفترةٍ. لمْ أكنْ أعرفُ ماذا أفعل بيدي، وعُدت إلى وضعها في جيوبي، وفركتُ نخديَّ من دون أنْ أرفع نظرتي عنه، حينئذٍ اقترب، وركلَني بقوّةٍ في ساقي التي آلمتني إلى حدٍ ما.

- والآن؟

- الآن ماذا؟

- هل أنت غاضب؟

أخرجتُ يديَّ، وأخذتُ أُفَرِقع عظام أصابعي. نسيتُ عَدَّها، وكالعادة استغرقتُ وقتاً طويلاً في هذا. كانت صوفي تقول: إنّها عادةٌ غير مهذّبةٍ.

- «لا». قلتُ.

- هل التشيليّون كلّهم جبناءُ مثلك؟

- أنا لستُ جباناً يا مايكل. التشيليّون شجعان، على سبيل المثال: لديك هيجينز، وخوسيه ميغيل كاريرا، وأرتورو برات.

- لمْ أسمع عنهم من قبْل.

- وألليندي أيضاً.

عبثَ في جَيب سُترته الجلديّة العُلْويّ، وأخرجَ سيجارةً داكنةً، وضعها في فمه، وأغلق الزِّمام المعدنيّ، الذي كان في حجم الدبّاسة. هذه السُّترات تساوي مئةً وخمساً وأربعين ماركاً

في «فيرتي». كانت تعجبني كثيراً، وذات مرّة أوشكتُ على إنْفاق مال رحلة اليونان لأشتريها. أشْعل مايكل السّيجارة بولّاعةٍ يابانيّةٍ من تلك التي تحمل صورة امرأةٍ عاريةٍ.

- نحن أيضاً لدينا أبطال. بسمارك على سبيل المثال، أمْ إنّك تعتقد أن بسمارك كان جباناً؟

- لا أعرف يا مايكل. أنا سيّءٌ في التّاريخ، لكنْ إن كنت تقول إنّه كان شجاعاً، فأنا أصدّقك.

أخذ نَفساً عميقاً من السّيجارة، وألقاها في الحال. أعتقد أنّه فعل هذا لكي أرى حذاءه طويل الرّقبة ذا النّعل الحادّ عندما أخذ يدْهَسُها حتّى ساواها بالأرض.

- «حسناً». قال: «لنتعارك».

- «حسناً». قلتُ.

وظلَّ كلٌّ منّا في مكانه. شمَّر مايكل الجلد الأسْود عن ذراعيه، وأغلق الزّمام ذا الحلقة الضّخمة، ووضع قبضتيه أمام

عنقه، وأنا أيضاً فعلتُ الشّيء ذاته، قام بالتّهويش ليجرّبني، لكنّني ظللتُ ساكناً، ترك ذراعيه يسقطان إلى جواره، ضمّ أطراف أصابعه، وظلَّ يحرّكهما من أعلى إلى أسفل أمام وجهي.

- لكنْ، أخبرني بشيءٍ أيُّها التشيليّ، هل ستدافع عن نفسك إنْ ضربتك؟

كانَ الكثير من اللّعاب قد تراكم في فَمي، والآن يشقّ عليَّ ابتلاعُه.

- نعم، هيّا اضْرِب.

- هل تشعر بالغضب؟

- لا. وأنت؟

- عادي. أنا حَذِرٌ فقط.

عاد لِثَنْي كوعيه، وأخذ يدور حَوْلي، وفعلتُ الشّيء ذاته.

لَمْ أتشاجرْ من قبْل طوال حياتي. ربّما عندما كنت صغيراً، لكنّني لا أتذكّر، وفجأةً، مثل سيفٍ ساخنٍ، ناولني ضربةً كونغ فو بحافّة يَده، وجعلتْ رأسي يطنّ، وأذني تتّقد. سقطتُ إلى جانبٍ، وكنت أوشكُ على الوصول إلى الأرض عندما رفعتني صفعةٌ على ذقني. لابُدَّ من أنّني قد عَضَضْتُ لساني في أثناء ذلك؛ لأنّني لم أجد الوقت اللّازم لإدخال يدي في فمي لإخراجه. شعرت بمَذاق الدَّم.

- هل تشعر بالغضب الآن؟

- لقد جعلتني أدْمى أيُّها التَّعِس!

- لكي نتعلّم.

رَكَلَني مرّةً أُخرى في ساقي، وضربني بيَده على أذني السّاخنة. عندما أدَرْتُ وجْهي بَدا لي أنّ هناك طفلاً ينظر إلينا من فوق الجسر. أمْسك مايكل بصدرِ قميصي، وعاد لدَفْعي مُجدّداً. في هذه المرّة شعرتُ بدخول التُّراب في فَمي، كما اندفع بَوْلي رغماً عنّي، وشعرتُ بساقيّ مُقزّزتين. نهضتُ بينما أتلوّى.

- هل تشعر بالغضب أيُّها التشيليّ؟

نظَّفت فَمي بقبضتي المضمومة كالمِطْرقة، وكانت عيناي مغشيّتين.

- «سأقلتك». صرختُ به.

- «مسكين». قال.

وكانت هذه أخر كلماته قبْل أن يثبّتني بإحاطة عُنقي بذارعه، وأخذ يضْغط على عُنقي بينما يدفع رُكبته في عَمودي الفقريّ. أمْكنني التملُّص منه بدفعة مفاجئة من الكوع في معِدته؛ حيث أخذته على حين غِرّة، وهنا أصبحنا كتلةً واحدةً من الرّكلات، والعَرق، واللّكمات الطّائحة التي كانت تسقط على الجسَد أحياناً، وفي أحيانٍ أُخرى كانت تصيب الفراغ.

كان حلقي مُحتقناً بالغضب، كأنَّ عُنقي ولساني مُترَعَان بالدُّموع، لكنّه لمْ يكن ليراني أبكي، بعد ذلك أردتُ غَرْزَ أصابعي في عينيه، وتحطيم رأسه بقطعةٍ من الحديد. الشّيء الوحيد الذي كان جسدي يرغب به هو شُربُ الماء من دون

توقُّفٍ حتّى أسْقط على رُكبتيّ، وفجأةً تغلغلتْ لكْمةُ مثل المِثْقاب الكهربائيّ في عظام أنْفي.

كأنّما سقطتُ فجأةً في حَمّام سباحةٍ ممتلئٍ بالألعاب النّاريّة، بتنانير نساءٍ تتطاير مع الرّيح، كأنّما زجاجٌ ملوّنٌ قد انفجر في عينيّ، اللّعنة! كأنّ كنيسةً ضخمةً تنهار داخل مُخّي، وكأنَّ فَمي مصنوعٌ من الملْح، وكان مايكل مُجرَّد ظِلٍ؛ لمْ أكن قادراً على تمييز وجْهه. تراءت لي أشياء غريبةٌ مرَّت في حياتي، ولا يمكنني وصفها.

على سبيل المثال: عندما كنّا نلعب مع بنات الأقارب في الغرفة المُعتمة، وكُنَّ يضْحكْنَ، ويَدَعْنَ لَمساتٍ خفيفةً تصل إلى ما بين سيقانهنّ، وخرائط للعالم؛ حيث كانت البلدان مشقوقةً كأنّها مجروحةٌ، وأفلام طرزان؛ حيث كانت الغابة سوداءَ، والأنهار من الدَّم، أشياء غريبةٌ، ومايكل لا يتوقّف، لكنّني لمْ أكنْ أشعر بأيّ شيءٍ تقريباً، كأنَّ رأسي بالكامل ممتلئٌ بشاشة سينما، وفمي طائرٌ ميتٌ، أشياء من هذا القَبيل، وكان مايكل يضغط بلكماته كأنَّما ليخترق الجِلْد والعظام، لتصل إلى القلب، حتّى المَعِدة.

- «مايكل». صرختُ به: «مايكل، اللّعنة، توقّف، إنّك تقتلني!»

لكنّ أصوات هذه الكلمات لَمْ تصدرْ عنّي؛ كنتُ قد انفصلتُ عن جسدي، كنت أشعر بأنّني أطفو في بحر أنتوفاغاستا الأزرق، في إجازة في الشّمال، رأيت أبي وأمّي، وقد تحوّلا إلى لَهبٍ، رأيت أنّهما يلعقاني بنعومةٍ، وأنّني أخرجُ من جسد أمّي، وكلّ شيءٍ كان حريقاً.

عندما استيقظتُ، كان مايكل ممدّداً إلى جواري، وكنتُ أترك الحَجر يسقط من يَدي.

كانت بقعةٌ من الدَّم قد جفّت فوق فَمه. نظرتُ في كلّ ناحيةٍ، وكان الظّلام قد حلَّ في كلّ مكانٍ. دائماً ما يخطر للمرء أنْ ينظر حوله في برلين ليكتشف أنّ اللّيل قد حلَّ. بَدا أنَّ اللّيل مصوغٌ من سَحابةٍ سوداء. نظرتُ إلى نفسي، من رأسي حتّى صدري، ولَمْ أعرف كيف أوقف الارتعاشات التي أصابتني، كأنّني مصعوقٌ بالكهرباء. كانت أجزاء جسدي تنبض بمفردها، كما تشاء.

جلستُ على الأرض، إلى جوار الدارجة النارية، أسندتُ رأسي إلى العَجَلة الأماميّة، والشّيء الوحيد الذي خطر في بالي هو الانخراطُ في البكاء. أعتذرُ إليكم، لكنّني لمْ أبكِ منذ عامٍ تقريباً، قبْل ذلك، عندما كان أبي وأمّي يغلقان الباب عليهما لكي يبكيا بينما يسمعان أخبار تشيلي، وكنت أشعر بالحزن عليهما، ولأنّني عاطفيٌّ إلى حدٍّ ما، كنتُ أبكي. ذات يومٍ خرج أبي من الغرفة بعينين مُحتقنتين بينما يمسح مخاطه، ورآني مستلقياً على الأريكة بينما أبكي.

- «لماذا تبكي؟». سألني.

- لأنّني سمعتكما تبكيان.

- «هذا ليس مسوّغاً». قال لي: «المرءُ يبكي هنا عندما لا يعود قادراً على التّحمُّل، ولأسبابٍ مهمّةٍ. هل تسمعني؟».

- نعم يا بابا.

- إن رأيتك تبكي بعد ذلك، سأقطع خِصْيتيك لكي تبكي برغبةٍ حقيقيّةٍ. مفهوم؟

بابا عصبيٌّ، وأحياناً يخبطني بيده عندما أضايقه كثيراً، لكنّه لم يضربني مرّةً واحدةً طوال حياتي. لمْ يفعل هذا عندما سرقتُ مالاً، أو عندما أوْشَكتُ على حرْق البيت في سنتياغو بعدما أشعلتُ ناراً للّعبِ كالهنود. فكّرتُ في أبي، إنْ رآني أبكي في هذا المكان، وإنْ عرف السَّبب، لن يقول لي أيّ شيءٍ. أعتقد أنَّ أبي يتمتّع بالتَّفهُّم مرَّةً كلّ عشْرِ سنوات.

تركتُ الدُّموع كلّها المتراكمة داخلي لتنساب، وخلال بُرهة لمْ أفكّر في أيّ شيءٍ. شعرتُ بأنّني محُاطٌ بحُزنٍ لا يترك لي أيّ فراغٍ صغيرٍ لأيّ شيءٍ آخر. أتذكّر أنَّ المطر قد بدأ في السّقوط بنعومةٍ شديدةٍ، وكان الشّعور بذلك الماء الخفيف ممتعاً على وجْهي السّاخن.

لابُدَّ من أنَّ زملائي متمدّدون الآن على البُسُط بينما يشاهدون كولومبو في التّلفاز، وأنّهم تناولوا «ضلوع» لَحْم خنزيرٍ شهيّةً، وأبي يستعين بالقاموس بينما يحاول قراءة أخبار «مرآة اليوم». تقدّمتُ في اتّجاه مايكل، ووضعتُ يدي تحت قفاه.

- «مايكل». قلتُ له: «لا تكنْ أحمقَ. لا تمُتْ».

بَدا لي أيّ مكانٍ في العالم أفضل من هذه الخرابة الممتلئة بالخُرْدة والقضبان الصَّدئة. أمسكتُ قطعةً من مرآةٍ مكسورةٍ وقرَّبتُها من فَمه، رأيت الممثّلين يفعلون هذا في السّينما. إنْ تجمَّع البُخار على الزُّجاج، فهذه إشارةٌ على أنّه حَيٌّ.

- «يا ميغيل!». قلتُ له بالإسبانيّة: «أنتَ حَيٌّ وتتحرّك. استيقظ وانظر في المرآة. لا تحزن، فأنت لستَ ميتاً».

وضعتُ أُذني على قلبه، وعندما شعرتُ بنَبضه ظللتُ لبرهةٍ فوقه بينما أبْتسم.

- هيّا يا مايكل. ماذا ستقول أمّك إنْ رأتك مرمياً هنا؟ لتستيقظ الآن.

لكنّه لمْ يستجبْ. بَدا لي أنّني أرى شخصاً ما يتحرّك فوق الجسر. فكّرتُ في أنّه ربّما يكون الفتى الذي أعتقد أنّني رأيته من قبْل، وأشَرْتُ إليه بيَدي لكَي يهبط لمساعدتي، لكنْ ما إنْ رأى إشارتي حتّى انطلق في الجَري. أسوأ ما في الأمر أنَّ المطر قد انهمر فجأةً، كأنَّ دواسة السُّرعة في السَّماء قد ضُغطت حتّى

آخرها. ابتلَّ كلُّ شيءٍ بسرعةٍ كبيرةٍ، وأوْشكَ اللّيلُ على الهَيْمنة تماماً، أردتُ العثور علي أيّ مكانٍ هنا، أو هناك لحماية مايكل من المطر، لكنْ لمْ يكن هناك سقفٌ يكفي لتغطية ظُفْرٍ واحدٍ.

ظللتُ أطوف حوله، كانت يداي في جيوبي، وأرْكلُ العُلبَ والأحجار الصَّغيرة. تركتُ المطر يسقط عليّ برهةً حتّى شعرتُ بالماء يبلّل القميص. الفكرة الوحيدة التي خطرت في بالي هي وضْعُ عُلبةٍ تحت المطر حتّى تمتلئ بالماء، بعد ذلك جلستُ فوق مايكل، وسكبتُ الماء بقوّتي كلّها على جبْهته.

حرَّك رأسه لأوّل مرّة، فتح عينيه قليلاً، لكنْ سرعان ما أغلقهما. قال شيئاً ما لمْ أفهمه، وواصَل النَّوم، بعد ذلك انْضمّتْ أوركسترا من البرْق والرَّعد إلى الفيضان الكونيّ. كان المشهد جميلاً للغاية لكي يراه المرءُ من نافذة الغرفة بينما ينْعم بالدِّفء، وبالبطن ممتلئاً، والقلب سعيداً. عندما كانت قطرات المطر تضرب الأرض كانت تثير الوَحْل، وأخذت الدراجة النارية الباهرة تتسخ.

فتحتُ زمام سُترته، وبحثتُ عن سيجارةٍ من تلك التي رأيتها من قبْل، كانت هناك اثنتان، غطّيتُ إحداهما بجسدي،

وأمْكنني إشعالها. كان الدُّخان دافئاً بينما يمرُّ على الحلْق، وظللتُ أدخّن في هدوءٍ بينما تتحوّل الأرض إلى مستنقعٍ، ولم يعُد المَشيُ عليها ممكناً تقريباً. لا أعرف إنْ كان ما أقول حماقةً أم لا، لكنْ توجد أحيانٌ تصبح فيها سيجارةٌ أفضلَ أصدقاء المرْء. بينما كنتُ أدخّن السّيجارة هناك، شعرتُ بأنّني لمْ أكن بمُفردي.

مرَّ قطارٌ ممتلئٌ بالحُزن، وبدأتُ أرتعدُ من البرْد. اقتربتُ من مايكل، وفكّرتُ في أنّ إيديث تقوم بلفِّ تموّجات شَعرها في تلك اللّحظة لكي تقوم باستقبالي عند الباب. فكّرتُ في أنَّ أمّها ربّما تكون قد اشترت شرائحَ لَحمٍ بقريٍّ للتّناول على العشاء، وربّما كان لديهم نبيذٌ فرنسيٌّ على المائدة. يجب أنْ أقول لها: لا، شكراً يا سيّدتي. أنا لا أشرب، وهكذا أترك لديها انطباعاً جيّداً. فكَّرتُ كيف سيكون جِلدُ إيديث، الأبيض كدُميةٍ، عندما يدفأ بنبيذٍ أحمرَ في بطنها. «ذات الشَّعر المتموّج، ذاتَ الشَّعر المتموّج»، أخذتُ أردّد مثل الببّغاء.

فجأةً تحرَّك مايكل، ورأيت أنَّ عينيه مفتوحتان، وأنّه يُمرّر مِعْصمه على وجْهه لينظّفه من الوَحْل. أمسكتُ بظَهره، وساعدته لكي يجلس. لمع برقٌ هائلٌ وأخذ المطر يهطل كما لمْ

يحدث من قبلْ.

- «ماذا حدث؟». سأل بصوتٍ أجشّ.

- كنّا نتعارك.

- نعم، أعرف هذا، لكنْ ماذا حدث لي؟

- لا أعرف. لقد ضربتك ضربةً قويّةً فجأةً، وظننتُ أنّك قد متّ.

هزَّ رأسه، وأمسك بالذّراع التي مددتها لأساعده على النّهوض.

- «لقد فزتَ عليّ إذاً». قال: «ضربتني ضربةً قاضيةً».

كان الماءُ يسقط بغزارةٍ، والجوُّ مُعتماً للغاية، فلمْ أكنْ أرى وجْهه تقريباً. أدْخل إصبعاً بحِرصٍ داخل أنفه، وظلّ ينبشُ، كأنَّما يبحث عن شيءٍ ما في الدّاخل، بعد ذلك أمال رأسه، وضرب على قفاه، كأنَّما يريد إخراج شيءٍ بهذه الطّريقة.

- «المطر يسقط». قال.

بالفعل كان بالغَ الذّكاء. ما زلت أتساءل كيف أمْكنه إصدارُ هذه الملحوظة الذّكيّة للغاية. أمسكتُ جريدةً مبتلّةً للغاية مثلينا، وأعطيتها له.

- هل تعرف شيئاً؟ من الأفضل ألّا نُواصِل العِراك يا تشيلّي. قد نُصابُ بالبَرد.

- «متّفقٌ معك». قلتُ.

أخذنا نتقافز بين بِرك الماء الصَّغيرة، وركب مايكل على الدراجة النارية، ودارت الجوهرة من أوّل ضغطة. بينما كان يسخّن المُحرِّك، عصرتُ بنطالي، وتحسّستُ بأطرافٍ أصابع قدمي لأرى إنْ كانت الماركات الألمانيّة ما زالت موجودةً؛ لأنّني شعرتُ أنَّ حذائي يشبه البُحيرة، بالإضافة إلى هذا كان فَمي متورّماً، ربّما كان بحَجم حبّة القَرْع.

- «لقد تركت فَمي متورّماً». صحتُ في أذنه.

اسْتدار، وأمسك بفكّي، وحرَّكه كأنّه طبيبٌ.

- «لقد تعادلنا إذاً». صَدر حكمُه.

أحنيتُ رأسي موافَقةً بوقارٍ بالغٍ.

انطلق بالدراجة النارية، واضطّررتُ إلى الإمساك بكتفيه جيّداً، لأنَّ الخرابة كانت تشبه حَلبةً للتزّلُّج. بالطّبع كان توازن دراجة هوندا سي بي 350 مشهوراً في العالم كلّه. عندما انطلقنا في شارع سيمينس صحتُ به:

- اسمع يا مايكل. أنا أدعوك لتناول بيتزا.

- هل تمتلك مالاً؟

- معي شيءٌ من المال.

ذهبنا إلى مطعم بيتزا «لوكاندا» في شارع شتروم، وعندما دخلنا تكوّنت بِرْكةٌ صغيرةٌ على الباب. فتح الإيطاليّون أفواههم عن آخرها. مع الأسف، لمْ يكن معي مرآة لأحكي لكم كيف كانوا يروننا. كنت أشعر بأنَّ فَمي يسقط مُعلَّقاً حتّى عنُقي، وكان جزءٌ من أنف مايكل مرئيّاً وسْط الوَحل.

اتّجهنا إلى المائدة الأخيرة لكي نقلّل من أثر الفضيحة، واقترب منّا النّادلُ ضاحكاً وفَزِعاً.

- إنّها تُمطر، أليس كذلك؟

الإيطاليّون أيضاً نُبهاء إلى أقصى حَدّ، يَصلون إلى استنتاجات رائعة من دون حاجة لاستخدام منطق أرسطو. طلبنا وجبتيّ بيتزا بكمّية مضاعفة من الجُبْن والجمبري الصَّغير. بينما كنّا ننتظر البيتزا، أتينا على زجاجة نبيذ شيانتي فاخرة يبلغ سعرها اثني عشر ماركاً، وكان النّبيذ جديراً بتذوّقه شيئاً فشيئاً.

- «سأوصل تحياتك إلى أخي». قال مايكل.

- «هذا يبدو لي لطيفاً». قلت له.

- متى ستعود إلى تشيلي؟

- عندما يسقط بينوتشيه. في أوّل طائرة.

- ومتى سيحدث هذا؟

- قريباً.

ملأ فَمَه بالنَّبيذ من دون أنْ يبتلعه، وتحسّس قفاه، بينما يبدو عليه الألم.

- أودُّ الذّهاب لزيارتك عندما تكون هناك، هل هو بلدٌ جميلٌ؟

- يوجد ما هو جميلٌ، وما هو قبيحٌ.

- وماذا عن النّساء؟

- جميلاتٌ. توجد شواطئ رائعةٌ، حيث يمكنك التّزلق في فاريونس. لدينا بطلٌ في سباقات الدّرّاجات يحمل اسْماً ألمانيّاً، اسمه كيرت هورمان.

- لمْ أسمع عنه من قبْل.

ابتلع كوب النَّبيذ فجأةً، وأخرج سيجارته الدّاكنة من السُّترة، وقال:

- ألليندي كان شجاعاً للغاية. هل حارب بمفرده بالفعل أمام الجيش كلّه؟ أمام الطائرات وهذا كلّه؟

ظللت أنظر إليه، وأدركتُ أنّه كان جادّاً كَميتٍ. عرفتُ في الحال أنَّ الأمر يهمّه.

- «لمْ يكن بمفرده تماماً». قلت له: «كان هناك الكثير من الرّفاق الذين ماتوا بجواره. قتلوا الكثيرين في البلاد كلّها».

أتى النّادلُ بوَجبَتيّ البيتزا، والوصف الذي كانتا تستحقّانه هو التّعليق في مُتحفٍ ما إلى جوار الموناليزا. كان أكلهما يُثير الأسى. ملأنا كوبين، ورفع مايكل كوبهُ، وقال: «في صحّتك». لامستُ كوبه بكوبي، وهناك، في قاعهِ، كانت روحي كامنةً. منذ زمن سقراط وهوميروس لمْ ترتفع روحي المعنويّة بجرعتين من ترياقي المُفضَّل.

أكلنا في صمتٍ مهيبٍ حتّى اختفت آخر قطعةٍ من الفُتات. عندما انتهينا قلت له:

- هل تعرف يا مايكل؟ عندما كنت تضربني، شعرت فجأةً أنّني سأموت.

- أنا آسف.

- لا، لا أقول هذا لكي تعتذر. لكنّني رأيت ما يشبه الحلم.

- كيف؟

- رأيت لحظة ميلادي. شعرت أنّ أمّي كانت تُمرّر لسانها على وجنتي، لكنّ أبويَّ كانا مجرّد لهيبٍ. هل تفهمني؟

شرب مايكل رشفةً، ثمّ ألقى ظهره إلى الخلْف بينما كانت يداه في جيوبه.

- ما حدث لك هو أنّك مَررت بحالة هلوسةٍ. هل تعرف ما هي؟

- «لا». قلت له: «يجب أنْ أبحث عن هذه الكلمة في القاموس».

- أنا أيضاً لا أعرفها جيّداً، لكنّ الهَلْوَسة تشبه التّفكير في أمرٍ ما. هل تفهمني؟

- «نعم». غمغمتُ.

لكنّني لمْ أكن قد فهمت.

- «سأبحث عن هذه الكلمة في القاموس». قلت له.

عندما وصلتْ لحظة الدّفع اضطّررت إلى خلع الحذاء من قدمي اليُسرى، والنّبّش في جوربي. أخرجتُ الورقة الزّرقاء فئة المئة مارك.

- «هل تحفظ مالك هنا؟». سألني بينما ينظر إلى قدمي الحافية.

- «نعم». قلتُ له: «أخشى أنْ أتعرّض إلى السّرقة».

- يا رجُل، من أجل هذا توجد البنوك.

- «أنا لا أحبّها». قلتُ له.

- النّاس كلّها تحفظ مالها في البنوك. الحشوات والجوارب أصبحت موضةً قديمةً.

- أُنظر يا مايكل، لنْ نعود إلى العِراك بسبب موضوع البنوك.

- بالطّبع لا.

- لننهي الأمر هنا إذاً.

- موافق.

أمسك النّادل بطرف الورقة الماليّة كأنّه يفحص فأراً بينما يمسك بذيله.

- «ما الخطب؟». سألته: «إنّها ورقةٌ ماليّةٌ فئة المئة مارك».

- «نعم، أعرف هذا». قال: «لكنّني لم أرَ أيّة ورقةٍ ماليّةٍ مطويّةٍ بهذا الشّكل من قبْل.

ذهبتُ إلى المدرسة صباح اليوم الاثنين بلاصقٍ على عيني،

ولم توجّه إليّ ذات الشّعر المتموّج كلمةً. حاولتُ الاقتراب منها، لكنّها ذهبت مع صديقاتها للضّحك في الحمّام. يومِ الثّلاثاء وضعتُ علبة شوكولاتة في جيبي، ولصقتُ عليها ترجمةً للألمانيّة لواحدةٍ من «*عشرون قصيدة حبّ*» لنيرودا. نسختها بيدي، وكتبت فوقها: «الشوكولاتة والقصيدة من أجلك». تركتها على دكّتها قبْل بدْء حصّة الأدب، وحينئذٍ أمْكنني إرضاء فضولي لمعرفة كيف ستبدو بوجنتيها المخضّبتين بالحُمرة.

يوم الأربعاء أوصلت إليّ رسالةً من يَد إلى يَدٍ، وأذكرها هنا كدليلٍ، وكانت تقول فيها: «يوجد حفل رقصٍ في بيتي في عطلة نهاية الأسبوع. أدعوك إليها».

يوم الخميس خلعت الشّريط اللّاصق. يوم السّبت رقصنا على أنغام أغنية

«*الخد على الخد*(7)». وأفضيت لها: «*بيبي أي ونت يو تو ونت مي*(8)»، وقالت لي: حسناً.

أسوأ ما في الأمر أنّ أبي سألني عمّا حدث لي، على أنّني حاولت أنْ أشيح بوجهي إلى الجانب الآخر عندما يكون

حاضراً. حكيت له ملخّص الحكاية. ناولني ضربةً خفيفةً، ولمْ يحدّثني طوال ثلاثة أيّام. يوم الجمعة زارني مايكل في البيت. لابُدّ من أنّكم تعرفونه الآن، فهو الشّخص الذي تعاركتُ معه حتّى آخر نَفَسٍ إلى جوار شريط القطار في شارع باسيل. قال: إنّه قرأ شيئاً ما عن بينوتشيه في إحدى الصّحف، كما أتى أيضاً بزجاجة نبيذٍ ماركة «باوجوليس»، وكان السِّعر على المُلصق: ثمانية ماركات.

دخلنا لنشربها في غرفتي بينما نسمع هيت بارادي في الرّاديو. تحدّثنا عن أمورٍ عديدةٍ، وسألني إنْ كان هناك أيّ شيءٍ يمكنه أنْ يفعله للقضاء على بينوتشيه. أعطاه بابا رقم تليفون السّيّد أورس، وفي الأسبوع التّالي ظَهر مايكل في اجتماع لـ«مجلس تشيلي». عندما رآه أبي داخلاً، ظلّ ينظر إليّ، وقال: إنّني «مُبَشِّر».

وكانت هذه كلمةً أُخرى اضطّررت إلى البحث عنها في القاموس.

(1) فريق Quilapayún وفريق Inti-Illimani، فريقان موسيقيان تشيليان تأسسا في منتصف الستينيات، وشكّلا جزءاً مما يُطلق عليه «الأغنية التشيلية الجديدة». كانا يدمجان الموسيقى الفولكلورية التشيلية بالموسيقى الحديثة، واشتهرا بالأغاني الاحتجاجية أيضاً.

(2) Heute برنامج إخباري، ترجمة اسمه «اليوم».

(3) Taggeschau برنامج إخباري، ترجمة الاسم «نظرة على اليوم».

(4) ديميتريوس يوانيديس: أحد قادة المجلس العسكري اليوناني الذي حكم اليونان من عام 1967 إلى 1974. (م).

(5) فرانتس بكنباور: لاعب كرة قدم ألماني أحرز كأس العالم مع المنتخب الألماني في سنة 1974. (م).

(6) Die Wahrheit.

(7) cheek to cheek.

(8) baby, I want you to want me.

أنطونيو سكارميتا:

كاتب من تشيلي، ولد في العام 1940 لوالدين من أصول كرواتية. درس الفلسفة والأدب في تشيلي، ثمّ في الولايات المتحدة الأميركية. حصل على عدة جوائز أدبية، أهمّها الجائزة الوطنية للآداب - تشيلي.

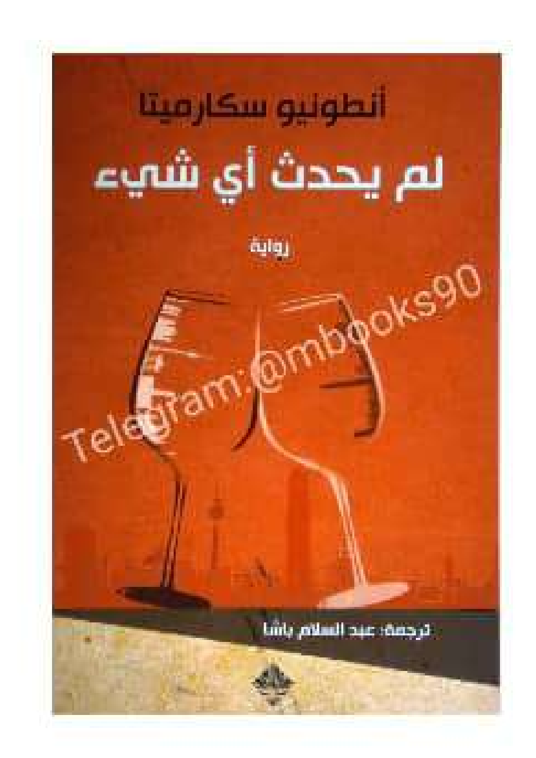
ترجمت أعماله إلى عشرين لغة حول العالم، وجُسِّد بعضها في أفلام سينمائية، منها: كتابه الأشهر ساعي بريد نيرودا (صبر متأجج) وأب سينمائي.

كتب وأخرج عدة أفلام سينمائية، كما عمل لفترة سفيراً لدولة تشيلي في ألمانيا.

عبد السلام باشا:

مترجم مصري مقيم في إسبانيا، ترجم عن الإسبانية العديد من الكتب، أهمّها: «سيرة ذاتية» و«حكايات» لخورخي لويس بورخيس، وروايتا «الهرطوقي» و«المجنون» لميجيل ديلبيس،

و«سؤال عينيها» لإدواردو ساشيري، وروايتا «تنفس صناعي» و«الطريق إلى إيدا» لريكاردو بيجليا، و«ملحمة الجاوتشو مارتين فيرو» الأرجنتينية.


أنطونيو سكارميتا
لم يحدث أي شيء
رواية
Telegram:@mbooks90
ترجمة: عبد السلام باشا